

العنوان:	ابن حزم ادبياً ناثراً
المؤلف الرئيسي:	المهري، محمد بن مسلم دبلان عامر جيد
مؤلفين آخرين:	شنوان، يونس(مشرف)
التاريخ الميلادي:	2001
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 191
رقم MD:	566238
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ، إمام الظاهرية، التراجم، الشعر العربي، نقد الشعر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/566238

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

المهري، محمد بن مسلم دبلان عامر جيد، و شنوان، يونس. (2001). ابن حزم اديبا ناثرا
(رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/566238>

إسلوب MLA

المهري، محمد بن مسلم دبلان عامر جيد، و يونس شنوان. "ابن حزم اديبا ناثرا" رسالة
ماجستير. جامعة اليرموك، اربد، 2001. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/566238>

الفصل الثاني

الدراسة النصية

اختيار النصوص.

إن أصعب ما يواجه الباحث في هذه الدراسة، هو اختيار النصوص، التي من خلال تحليلها نتعرف إلى السمات الفنية ونحددها، لتبين ملامح الأسلوب الأدبي في لكتابات ابن حزم؛ لأن ما هو معروف منها، ينحو منحىً علمياً بعيداً عن الجانب الأدبي والسبب يعود أولاً: إلى عدم توفر نتاج ابن حزم اللغوي بين أيدينا فمن المعروف لدى الباحثين من بين مؤلفاته.

- ١- مؤلف في الظاء والضاد.
- ٢- شيء في العروض.
- ٣- تسمية الشعراء الوافدين على ابن أبي عامر.
- ٤- التقيب على الإقليلي في شرحه لديوان المتنبي.
- ٥- بيان الفصاحة والبلاغة^(١).

ثانياً: فيما يرى الباحث أن العلماء اهتموا بنتاج ابن حزم العلمي، إما للإفادة أو في معرض الرد عليه، وأهملوا كثيراً مما تركه من نتاج أدبي باستثناء كتاب الطوق.

من هنا أصبح الباحث أمام كم هائل من الكتب والرسائل المطبوعة بالطابع التخصصي الخالص الأمر الذي يجعله أمام مهمتين صعبتين، أولهما: التقيب في كتب ذات طابع علمي صرف ما خلا الطوق، وثانيهما عملية الاختيار في هذا الكم ذي الطابع الأدبي وهو كم قليل.

في محاولة لوضع آلية منظمة لهاتين المهمتين، اتكأ الدارس على رسالة "طوق الحمامة" كمصدر أولى في اختيار النصوص ثم ما تلاها من الكتب والرسائل، معتمداً انتقائية في النصوص وذلك بعزلها عن سياقها العلمي وقراءتها في سياق النثر الفني، حتى نكون فصلاً يحمل في ثناياه سمات أدبية خالصة.

^(١) سير اعلام النبلاء، (١٨/١٩٧).

هذا ولن يمنع اختيار النصوص وترتيبها على النحو التالي أن نتناول
نصوصاً أخرى فيما أمكن ذلك لخدمة غرض هذه الدراسة.

النصوص التي تم اختيارها مادة لهذه الدراسة:

- ١- مقدمة طوق الحمامة.^(١)
- ٢- علامات الحب، أو ما يحدثه الحب للإنسان.^(٢)
- ٣- من لا يحب إلا مع المطاولة.^(٣)
- ٤- باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها.^(٤)
- ٥- باب الإشارة بالعين.^(٥)
- ٦- باب السفير.^(٦)
- ٧- باب طي السر.^(٧)
- ٨- باب الإذاعة.^(٨) "قصة أحمد بن فتح".
- ٩- باب الطاعة.^(٩)
- ١٠- باب المساعد من الإخوان.^(١٠)
- ١١- باب الواشي.^(١١)
- ١٢- ١٣- باب الوصل.^(١٢)
- ١٤- باب الهجر.^(١٣)

^(١) رسائل ابن حزم "طوق الحمامة" (٨٤/١-٨٥).

^(٢) المصدر نفسه (١٠٥/١).

^(٣) المصدر نفسه (١٢٥/١).

^(٤) المصدر نفسه (١٢٩/١).

^(٥) المصدر نفسه (١٣٦-١٣٧).

^(٦) المصدر نفسه (١٤١/١).

^(٧) المصدر نفسه (١٤٨/١).

^(٨) المصدر نفسه (١٥١/١).

^(٩) المصدر نفسه (١٥٣/١).

^(١٠) المصدر نفسه (١٦٣/١).

^(١١) المصدر نفسه (١٧١/١).

^(١٢) المصدر نفسه (١٨٠/١) و (١٨٣/١).

^(١٣) المصدر نفسه (١٩٦/١).

- ١٥- باب البين. (١)
- ١٦- باب البين. (٢) "وصف لدير آل حزم بعد خرابها".
- ١٧- باب القنوع. (٣) "وصف لرحلة إلى أحد البساتين".
- ١٨- باب السلو. (٤) وصف لجارية ألفها في الصبا.
- ١٩- باب الموت. (٥) "وفيه يصف ابن الطنبي صاحبه".
- ٢٠- باب الموت. (٦) قصة الأندلسي الذي باع جاريته.
- ٢١- باب قبج المعصية. (٧) وصف لرجل انهزم أمام شهواته.
- ٢٢- باب قبج المعصية. (٨) وصف لمودة امرأة كانت مودتها في غير ذات الله.
- ٢٣- مدح للدولة الأموية بالأندلس. (٩)
- ٢٤- وصف لمجلس أمير البونت. (١٠)
- ٢٥- ذكر ما يلاقيه العلماء من حسد في بلاد الأندلس. (١١)
- ٢٦- لمع من أحوال أمراء الطوائف وإهمالهم لأمر دينهم. (١٢)
- ٢٧- ذكر بعض من سخرية ابن حزم بابن النغيلة. (١٣)
- ٢٨- ردّ على من يتمنى للإمام ابن حزم الموت. (١٤)
- ٢٩- طالب العلم. (١)

(١) رسائل ابن حزم (١/٢٢٣).

(٢) المصدر نفسه (١/٢٢٧).

(٣) المصدر نفسه (١/٢٣٦).

(٤) المصدر نفسه (١/٢٤٩).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٦٠).

(٦) المصدر نفسه (١/٢٦٥-٢٦٦).

(٧) المصدر نفسه (١/٢٧٦-٢٧٨).

(٨) المصدر نفسه (١/٢٨٣).

(٩) المصدر نفسه، (٢/١٤٦) من رسالة في أسماء الخلفاء.

(١٠) المصدر نفسه (٢/١٧٢) من "رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها".

(١١) المصدر نفسه (٢/١٧٧). الرسالة نفسها.

(١٢) المصدر نفسه (٣/٤١-٤٣). من رسالة في الردّ على ابن النغيلة.

(١٣) المصدر نفسه (٣/٤٥). الرسالة نفسها.

(١٤) المصدر نفسه (٣/١٢٧). من رسالة في الردّ على الهاتف من بعد.

(١) المصدر نفسه (٤/٦٤-٦٥). من رسالة مراتب العلوم.

- ٣٠- الناس أعداء لما يجهلون. (٢)
 ٣١- ما يجب من خدمة العلم. (٣)
 ٣٢- صفة المقلد. (٤)
 ٣٣- صفة اليهود. (٥)
 ٣٤- حقيقة البرهان. (٦)
 ٣٥- مقدمة الرسالة الباهرة. (٧)
 ٣٦- ذكر بعض من سخرية ابن حزم بالمالكية. (٨)
 ٣٧- وصف لبعض المتأخرين من الفقهاء. (٩)
 ٣٨- ذكر بعض من غلو الأتباع في أنمتهم. (١٠)

(٢) رسائل ابن حزم (٨٦/٤). من رسالة مراتب العلوم.

(٣) المصدر نفسه (١٠١/٤ - ١٠٢). التقريب لحدود المنطق.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام (٢٨٥/١).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢٢٧/١).

(٦) المصدر نفسه (٣٠٦/٣).

(٧) الرسالة الباهرة (١٢).

(٨) المصدر نفسه (١٨).

(٩) المصدر نفسه (٢٢).

(١٠) المصدر نفسه (٣٢).

أدبية النص النثري عند ابن حزم.

خضع الأدب الأندلسي بشقيه الشعر والنثر لعملية المحاكاة أو التقليد للمشاركة، الأمر الذي جعل ابن بسام يزري على الأندلسيين قائلاً "إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم رجوع الحديث إلى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً".^(١)

ومع أن النثر أو الأساليب النثرية وهي مجال حديثنا هنا، قد تأثرت في مراحلها حتى القرن الخامس بأساليب أهل المشرق، إلا أنه لا ينكر استقلال الكتاب الأندلسيين في الجزئيات ومحاولتهم التجديد في اختيار الموضوعات^(٢)، أما أمر المحاكاة في الأدب الأندلسي فهو أمر طبيعي كمرحلة انتقالية تمر بها كل البيئات الأدبية ومن ثم تظهر عملية الإبداع، والاستقلال بشخصية أدبية تحمل طابع الوطن وأهله أو كما يسميه ابن شهيد دوران الزمان فالبقاء على نمط واحد أمر محال لا تقبله الطبيعة، وفي هذا يقول ابن شهيد:

"وكما أن لكل مقام مقالاً فكذلك لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، لكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه، وكما أن للدنيا دولاً، فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة، ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً، وأنور شعاعاً، لرجحان تلك العقول، واتساع تلك القرائح في العلوم، ثم دار الزمان دوراناً، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابني وهب ونظرانهم، فرقت الطباع، وخف ثقل النفوس، ثم دار الزمان فاعتري أهله باللطائف صلف، وبرقة الكلام كلف، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما"^(٣)

^(١) الذخيرة، (١٢/١).

^(٢) عباس، احسان، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، الطبعة (٧)، (٢٨٤).

^(٣) الذخيرة (٢٣٧/١).

ولما كان الزمان يدور، فقد أخذت الأندلس حظها من هذا الدوران حتى ظهر في الأدباء من أوجد لنفسه أسلوباً خاصاً في كتابته وفي هذا يقول الدكتور إحسان عبل:-
"ولعل ابن حيان هو الكاتب الوحيد الذي اشتق لنفسه أسلوباً أدبياً رفيعاً لم يعتمد فيه تقليد الكتاب الآخرين وهو فوق سهولة الأسلوب التاريخي ودون الأسلوب المسجوع إثارة للرونق اللفظي"^(١)

وإذا كان ابن حيان اختص بأسلوب أدبي في كتاباته التاريخية، فإن معاصره ابن حزم قد تبوأ لنفسه أسلوباً يخالف فيه جميع الأساليب الأدبية التي كانت في عصره، "هذا الأسلوب يمثل أعلى درجات الجودة من حيث اللفظ والتركيب والمعنى فألفاظه المفردة منتقاة انتقاء رائعاً، بحيث تكون كل كلمة متأخية مع أختها ولها جرس حلو يتفق مع موضوعها، والأسلوب متماسك رصين بليغ ويعد من قبيل السهل الممتنع الذي لا عوج فيه، ولا اضطراب في موسيقاه مسترسل ينساب بنغمات عذبة إلى النفس، وله مع هذا التكوين الرائع والنسج الصحيح معان تتلخى فتكون صوراً بيانية تغذي الخيال، فتشع بأخيلة تتفق مع موضوع القول وتذهب بالفكر فيها كل مذهب".^(٢)

إضافة إلى ذلك أن ابن حزم لم يعتمد المحسنات البديعية إلا ما جاء عفو الخاطر واستدعاه الموقف دون تصنع أو تكلف حيث ظل يعتمد البساطة في التعبير ويبعد عن الزينة اللفظية والسجع ولا يهتم بتطرية الأسلوب بل يرسله إرسالاً دون التفات إلى حلاوة الجرس،^(٣) أي أنه بقي عند النمط العادي من الأساليب الكتابية.^(٤)

وفي رأيي أن مخالفة ابن حزم للأساليب الفنية التي كان يعج بها عصره راجع إلى أسباب عدة منها:-

^(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين (٢٨٢).

^(٢) السبوي، مصطفى محمد، ملامح التجديد في الشعر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، عالم الكتب، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، (٥٢٢).

^(٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة (٣٣٣).

^(٤) الدابة، محمد رضوان، تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠١ - ١٩٨١، (٢٤٣).

قراءاته الواسعة في كتب اللغة والأدب وكثرة استظهاره روائع المنظوم والمنثور فضلاً عن موهبته الأدبية. (١)

ومنها تأثير مذهبه الظاهري من الأخذ بظاهر اللفظ لا باطنه، ومنها انعكاس الثقافة العقلية فكان يورد بعض المصطلحات المنطقية والفلسفية، ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج كما تفرض ثقافته الدينية والفقهية نفسها على أسلوبه فتد في ثناياه بعض مصطلحات هذه الثقافة. (٢)

ولا يغيب عنا أن الرجل داعية لمذهب ليس له ذلك الحضور في الأندلس مما يستدعي تبسيط الأساليب النثرية خدمة للمذهب حتى يطلع عليه العامي الخاصي، أضف إلى ذلك أن أصلاً من أصول المذهب يقوم على تحريم التقليد. يظهر من مجموع هذه الأسباب أن ابن حزم كون أسلوباً مرسلًا نكاد نجده في "جميع إنتاجه من وضوح، وحسن استعمال، ومثانة التركيب بحيث تأتي الألفاظ بقدر المعاني لا تزيد ولا تنقص". (٣)

والمطلع على تراث ابن حزم يجد أنه تميز بأسلوبين أحدهما: علمي بحث وهو ما نجده في كتب العقيدة "كالفصل" "والفقه" كالمحلى "والأصول" كالأحكام في أصول الأحكام.

أما الأسلوب الثاني، فهو: الأسلوب الأدبي وأغلبه في النثر "إذ الغرابة في أن شاعريته الحقيقية تظهر في بعض نثره أجلى وأسطع وأقوى مما تظهر في نظميه إذ يروي لك الأشياء التي شاهدها ويقص عليك الأحداث التي مر بها، ويبدو مجنحاً قوياً لا يناله رهبان مهمما أو غل في التحليق وجد في الصعود". (٤)

وفي الحقيقة أن النثر الأدبي واضح في رسالته طوق الحمامة وفي رسائل أخرى كتبها وإذا أردنا الدقة في الحكم فإن الطوق ميدان ابن حزم الذي أظهر فيه براعته الأدبية، وفي ذلك يقول إحسان عباس عن نثره في الطوق: "أنه أكثر

(١) ابن حزم ومنهجية في دراسة الأديان، (١٣٤).

(٢) ملامح التحديد في النثر الأندلسي، (٥٢٣).

(٣) إبراهيم، زكريا، ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري الموسوعي، الدار المصرية للنأليف والترجمة، (د.ت)، (٧٦).

(٤) شراره، عبد اللطيف، ابن حزم، رائد الفكر العلمي، منشورات الكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د - ت).

شاعرية، وأحفل بالحيوية، وأقل حظاً من المحاكمات الذهنية ولا يتعدى هذا النثر ثلاث طرائق تجيء أحياناً مجتمعة في الفصول الطويلة ... وتلك الطرائق هي التقرير، والخبر أو الحكاية والوصف الفني،^(١) وهذه الطرائق سيتناولها الباحث في الدراسة النصية فيما بعد.

أما أسلوبه فأول ما نلاحظه من أسلوب ابن حزم في الطوق "الإطناب فهو لا يكتفي إلا بالقول المسهب، وربما كرر بعض معاني، فيردد القول عنه في كل مكان يحتاج إليه ... ولهذا جاءت كتابته بيّنة واضحة"^(٢) ومع القول أنه يتجه نحو الترسل وتحرره من الالتزام بالسجع فإنه لا يعتمد إليه ولا يتكلفه، ولا نجد في كتابه من السجع إلا فقرات قليلة جاءت عفو الخاطر لا كد فيها ولا عناء "وأغلب الظن أنه أتى بها حلية وطرافة وإثباتاً لقدرته في هذا المجال، ولا يخفى أن السجع إذا أتى عفو الخاطر دون عناء أو كد أو استكراه، فهو من مستحسن الكلام ولطيفه لما فيه من جرس عذب وموسيقى موحية."^(٣)

انظر إليه وهو يصف جارية ألفها في صباه:

عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسبلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية العيوب، دائمة القطوب، كثيرة الوقار، مستلذة النفار، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطامع عليها، ولا معرس للأكل لديها.^(٤)

هذه الاختيارات الحزمية لتلك الفقرات المسجوعة لم تأت عن كد أو استكراه، بل جاءت في سيلان طبيعي تحفها نغمة حزن ينفثه قلب ملئ بالأحزان مثقل بالجراح.

أما عن الترادف فقد اهتم به ابن حزم ليس لمجرد الاستعراض لقدرته البيانية ولا إثارة الجانب اللفظي، ولكن تعبيراً عن حماسة لفكرة ورغبة في تأكيدها وتوضيحها، ولذلك لا يستمر هذا الترادف طويلاً، بل يعود ابن حزم إلى

^(١) رسائل ابن حزم (١/٨١).

^(٢) ملامح التحدید فی النثر الأندلسی، (٥٢٣).

^(٣) عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف مصر، (د - ت) (٢/٢٩٤).

^(٤) رسائل ابن حزم (١/٢٤٩).

إيجازه سريعاً بعد أن انتهت الدفقة الشعورية وخمدت قوة الحماس عنده ... خاصة في بعض المواقف عند الوصف أو التعبير عن شعور أو انتصار لرأي. (١)
حيث يقول في باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها:
"وأعلم أعزك الله أن للحب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً وأمرأ لا يخالف، وحداً لا يعصى، وملكاً لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يرد، وأنه ينقض الممرار، ويحل المبرم، ويحل الجامد، ويحل الثابت، ويحل الشغاف، ويحل الممنوع. (٢)

والذي يلفت الانتباه أن الوصف عند ابن حزم متصل بنظرته للصورة أو ما يسميه هو "بالصورة الحسنة" فالنفس تميل إلى التصاوير المتقنة فإن تثبتت واستقرت نظرت إلى ورائها شيئاً يشاكلها. (٣)

من خلال ما تقدم يتبين لنا مدى احتفاء ابن حزم بالصورة الجالبة للنظر ومن ثم يأتي ما تحدثه الصورة من تأثير في النفس، فإذا كان تعلقها يقف عن حدود ظاهر الصورة فهذه هي الشهوة، أما إن ميزت النفس شيئاً ما وراء الصورة فعند ذلك يبدأ الحب من هنا نجده يصف ود امرأة تقلب مع مرور الزمن لأن نظرها لم يتعد حدود الصورة، فكانت مودتها في غير ذات الله:-

... ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل، فعهدتها أصفى من الماء، وألطف من الهواء، وأثبت من الجبال، وأقوى من الحديد، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام، وأضوأ من العيان، وأنقى من النجم، وأصدق من كدر القطا، وأعجب من الدهر، وأحسن من البر، وأجمل من وجه أبي عامر، وألذ من العافية، وأحلى من المنى، وأدنى من النفس، وأقرب من النسب، وأرسخ من النقش في الحجر، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة استحالت عداوة أفضع من الموت، وأنفذ من السهم، وأمر من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمضى من عقم الرياح، وأضر

(١) دراسة الحب في الأدب العربي. (٢٩٦/٢).

(٢) رسائل ابن حزم، (١٢٩/١).

(٣) رسائل ابن حزم، (١/٩٨-٩٩).

من الحمق وأدهى من غلبة العدو، وأشد من الأسر، وأقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار، وأنأى من الجوزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خرق العادات، وأقطع من فجأ البلاء وأبشع من السم الزعاف، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات، وقتل الآباء وسبى الأمهات.^(١)

هكذا جاء تشخيص ابن حزم في حالتي المودة والبغضاء: فبينما كانت المودة أصفى من الماء وألطف من الهواء وأثبت من الجبال رسوخاً وأوضح من ضوء الشمس بانئة للعيان لا رياء فيها ولا تصنع، إذ بها تتقلب رأساً على عقب وتتبدل المودة إلى بغضاء استحالت أفضع من الموت وأنفذ من السم إلى القلب لأنها أدرى بمواطن الضعف وأضر من الحمق الذي لا يعرف الضر والنفع من أين يؤتى.

هذا التشخيص الدقيق جعل من ابن حزم نحاً يرسم لنا صورة امرأة لها وجهان وجه عليه علامات البشر والنضارة والجمال، ووجه كالح لا يعرف إلا الانتقام والفتك بمن يقف في طريقه.

هذا الإبداع الحزمي في الوصف راجع إلى إجادته للتشبيه وإبتكاره في صوره، بعيداً عن الصور المستهلكة والتعبيرات المألوفة،^(٢) التي أصبحت مهترئة لكثرة اللابسين لها من كتاب عصره، فجاء أسلوب الإمام نابعاً من عينه أو نبعه الأول الذي لا زخرف فيه ولا طلاء، بمعنى آخر كما كانت الأساليب في الصدر الأول من هذه الأمة، وكأنه يوازي بين إرجاع طريقته في التأليف الأدبي إلى العصر الأول وبين أصول مذهبه الذي أرجعه إلى المصادر الأولى وهي كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة.

والجدير بالإشارة أيضاً أن ابن حزم استخدم الطباق في ترسلاته ولكن دون كد للذهن أو تكلف في الطبع إذ يقول عن الإشارة بالعين: "الإشارة بلحظ العين وإنه ليقوم في المعنى المحمود، ويبلغ المبلغ العجيب، ويقطع به ويتواصل، ويوعد

^(١) رسائل ابن حزم (١/٢٨٢-٢٨٣).

^(٢) انظر دراسة الحب في الأدب العربي، (٢٩٧).

ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضرب به الوعود، وينبه على الرقيسب ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب، ويمنع ويعطى. (١)

بهذه المراوحة بين أفانين الأدب من بساطة وترسل وسجع وطباق ووصف بعيداً عن مستكره اللفظ وحوشيه، وجنوح عن الغرابة والرموز التي تظهر بها بعض أدباء القرن الخامس، امتاز نثر ابن حزم بالسهولة العذبة والبساطة الرفيعة، ملبساً أسلوبه عاطفة صادقة محلاة بتصوير دقيق، يشهد بعبقورية فريدة تتم عن عقل مجدد، وهذا ما حدا بأحد الباحثين إلى القول.

"لنثر ابن حزم خصائص نثر الجاحظ تقريباً، إلا أنه يتفوق عليه بميزتين الأولى: خلوه من الاستطرادات التي قد تمل كثرتها قارئ الجاحظ، والثانية: ترتيب معانيها ترتيباً يكاد يكون منطقياً، ثم يستقل أبو عثمان بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح". (٢)

(١) رسائل ابن حزم، (١/١٣٦).

(٢) ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (٢٠٠).

سمات أسلوبية خاصة في كتابة ابن حزم.

توطئة -

من الطبيعي أن يصحب اهتمامنا بالسمات الأسلوبية في كتابة ابن حزم وخصائصها في معظم المستويات، أن نوجز تعريف عن الأسلوب والأسلوبية وذلك تمهيداً للوصول إلى تلك الخصائص أو السمات الأسلوبية.

فالأسلوب كما يعرفه الباحثون هو "طريقة الكاتب في التعبير عن موقف ما والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، في اختيار المفردات وصياغة العبارات والتشبيهات البلاغية"^(١)

في حين يرى بعض الباحثين أن "اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانيات المتاحة للتعبير، ومن ثم فإن الأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين"^(٢).

على أن أ.ف. تشيتشرين ترى أن "الأسلوب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأفكار ففي تعبير الكاتب عن مواقفه من الأشياء تنعكس فلسفته الحياتية ووجهة نظره في الإنسان والمجتمع، ويتأثر بناء الكلام عنده بذلك، لا سيما في استعماله لأقسام من الكلام دون غيرها"^(٣).

وإذا كان الأسلوب هو الاختيار أو التعبير عن موقف ما مرتبطاً بذلك بأفكار الكاتب، فإن الأسلوبية كما يراها فاليري، "تفحص الوسائل التعبيرية والإيحائية التي يبتكرها الكاتب أو الشاعر لترفع من طاقة الكلام وقدرته على النفاذ والتأثير"^(٤).

- فالإلى أي مدى تميز أسلوب ابن حزم بسمات خاصة؟

- وإلى أي مدى انعكس مذهبه الظاهري في وجهة نظره إلى المجتمع على أسلوب كتابته؟

^(١) عزام، محمد، الأسلوبية منهجاً نقدياً، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١، ١٩٨٩، (١٠).

^(٢) مصلوح، سعد، الأسلوبية دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، ط٣، ١٤١٢ ١٩٩٢، (٣٧-٣٨).

^(٣) تشيتشرين، الأفكار الأسلوبية، ترجمة حياة شرارة، منشورات وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية، ١٩٧٨، (٢٥)، بتصرف.

^(٤) السيد، شفيق، الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، دار الفكر العربي، (د-ط)، (د-ت)، ١٤٦-١٤٧.

وبيان ذلك وتفصيله فيما يلي:-

١- على مستوى اللفظ:

والمقصود بذلك اختيار اللفظة المفردة من بين ألفاظ وأوزان صرفية معينة، مروراً بالألفاظ الغريبة قليلة الاستعمال ثم المصادر والمشثقات ونهاية بدلالة الألفاظ على أدبية النص، وكل ذلك بهدف الحصول على ثراء موسيقي وإيقاع صوتي قوي يعطيان مردوداً نفسياً معيناً أو تنبيهاً للقارئ إلى أهمية الفكرة والموضوع.

١-١ ألفاظ على أوزان صرفية معينة

أ- (أفعل) وهو من أكثر الأوزان وروداً عنده، ويرد هذا الوزن في نصوص موضع الدراسة حوالي (٦٠) مرة أو يزيد بمختلف أبنيته فعلاً وفاعلاً ومفعولاً ومصدرأً، ومن استعمالاته لهذا الوزن ما نجده في الأمثلة الآتية:-

• فما رأيت "أشد" تبجحاً ولا "أعظم" سروراً بما هو فيه من محب "أيقن" أن قلب محبوبه عنده (نص/١٤).

• فعهدتها "أصفى" من الماء ... "وأحسن" من البر، "وأجمل" من وجه أبي عامر (نص/٢٢). وذلك في وصف امرأة كانت مودتها في غير ذات الله.

• فلم يك في دول الإسلام "أنبل" منها (نص/٢٣). وذلك في حديثه عن الدولة الأموية.

• "أربأ به" عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه" (نص/٢٤)

وذلك في معرض حديثه عن الأمير محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البوننت.

- ويتكرر استعماله لألفاظ معينة على وزن أفعل في نصوص موضع الدراسة غير مرة منها "أشد" يتكرر وروده أربع مرات.

- فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده. (نص/١٤).

- "وأشد امتزاجاً من اللون في الملون" (نص/٢٢).

- "وأشد من الأسر" (نص/٢٣).
- "وأشدهم تثبتاً" (نص/ ٢٥).
- "وزن أكثر" يتكرر وروده أربع مرات في النصوص الآتية:-
- "ولا أكثر نصراً على أهل الشرك" (نص/٢٣).
- "وأكثر ذلك مدة حياته" (نص/٢٣).
- "أو ليس في العجب أكثر من أن يجعلهم أنفسهم أولاد الله" (نص/٣٣).
- "وأكثرهم غشاً وأجبنهم نفوساً" (نص/ ٣٣)

٢-١ الأفعال المزيدة الأوزان

يلجأ ابن حزم في كثير من المواضع إلى استعمال الأفعال المزيدة الأوزان وما يشتق منها منوعاً في أوزانها بقصد تكثيف الصورة، والمبالغة في التعبير عن فكرة معينة مثال ذلك:

- " ولا حملنا مالا طاقة لنا به ولا وكلنا إلى ضعف عزائنا.
- ... وحمدت الله عز وجل عليه واستدمته لك، واستزدته فيك" (نص/١).
- "وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به" (نص/٧).
- "يبد أصحابه في الانقباض ويفوقهم في الرعة" (نص/٨).
- فعاد نهارها تبعا لليلها في الهدوء والاستيحاش فابكي عيني وأوجع قلبي وقرع صفاة كبدي" (نص/١٦).
- وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم تثبتاً،
- ... لا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر
- فيهم الماهر منهم واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم
- حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته... فإن تعرض للتأليف
- ... اشتط عليه وعظم يسير خطبه، واستشنع هين سقطه" (نص/٢٥).
- من متدهرة الزنادقة المستسررين بأذل الملل وأرذل النحل من اليهود التي
- استمرت لعنة الله على المرتسمين بها، واستقر غضبه عز وجل على المنتمين

إليها، وأطلق الأشر لسانه، وأرعى البطر عنانه، واستشمت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة" (نص/٢٦).

- "ولا يندعز قارئ كتابنا هذا من هذا الفصل، فيكع راجعاً، ويجفل هارباً ويرجع من هذه الثنية ثانياً" (نص/٣١).

- "إنما لجأ إلى القول بالوقوف وتعلق بهذه العوارض، وسلك في هذه المضايق من بهر شعاع الحق عقله، والتنع نور الله تعالى بصر قلبه، وارتبك في غيه" (نص/٣٣).

- "أما بعد أيدينا الله وإياكم بطاعته ... فقد الجموا خصومهم بلجام، وكعموا مخاليفهم بكعام، ولم يشكوا أنهم أتو ببرهان قاطع" (نص، ٣٥)

٣-١ المصادر والمشتقات الأخرى

ومما يتصل باختياره للمفردات، ما تراه ملاحظاً في نصوصه من إعمال للمصدر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة، وهذا متعلق باهتمامه في تعميق الإحساس بقوة الحدث لصاحبه وبقائه، زد إلى ذلك ما يضيفه من نغمة صوتية قوية تحقق مردوداً نفسياً لدى المتلقي بأهمية الأمر المتحدث عنه.

ومن أمثلة ذلك:-

١- ولا وكلنا إلى (ضعف) عزائنا، (وخور) قوانا، (ووهاء) بنيتنا، (وتلدد) آرائنا، (وسوء) (اختيارنا) - (نص/١).

٢- ... وقصدتني بنفسك على (بعد) (الشقة) (وتتائي) الديار (وشحط) (المزار) (وطول) (المسافة) (وغول) الطريق ... (نص/١).

٣- لا يرى إلا في (محفل) (مرضي) (محمود) المذاهب، (جميل) الطريقة، (بأئنا) بنفسه (نص/٨).

٤- إلا أن يكون (مختلطاً) في تمييزه، (أو مصاباً) في عقله (بجليل) ما فدحه ... أما إن كانت له بقية أو ثبتت ثببت (مسكة) فهو (ظالم) في (تعرضه) (نص/٨).

- ٥- (صعب) الشكيمة (جموح) (القيادة) (ماض) (العزيمة (نص/٩)).
- ٦- (صديقاً) (مخلصاً) (لطيف) القول، (بسيط) الطول، (حسن) المأخذ... (شديد) الاحتمال، (صابراً) على الادلال، ... (محمود) الخلائق، (مكفوف) البوائق، (محتوم) المساعدة، (كارها) للمباعدة. (نص/١٠).
- ٧- (مغضوضة) البصر، (شديدة) الحذر (نقية) العيوب (دائمة) القطوب، (كثيرة) الوقار، (مستلذة) (النفار)، لا توجه الأراجي نحوها، ولا تقف المطامع عليها، (ولا معرس) (للأمل) عندها (نص/١٨).
- ٨- فعهدتها (أصفى) من الماء، (وأطف) من الهواء (وأثبت) من الجبال، (وأقوى) من الحديد، (وأصح) من العيان ... (وأحسن) من البر، (وأجمل) من وجه أبي عامر (نص/٢٢).
- ٩- (والمشهد) (الآهل) بأنواع العلوم، (والقصر) (المعمور) بأنواع الفضائل، (والمنزل) (المحفوف) بكل (لطيفة) (وسيلة) من دقيق المعاني (وجليل) المعالي، (قرارة) (المجد) (ومحل) (السودد) (نص/٢٤).
- ١٠- فإنها خصت من (حسد) أهلها للعالم (الظاهر) فيها (نص/٢٥).
- ١١- "وصار (غرضاً) للأقوال، (وهدفأ) (للتسبب) إليه (ونهباً) لللسنة" (نص/٢٥).
- ١٢- إن يسلم من المتألف، وينجو من (المخالف) فإن تعرض (لتأليف) (غمز) (ولمز)، (وتعرض) (وهمز) واشتط عليه، وعظم (يسير) (خطبة)، واستشنع (هين) (سقطه) (نص/٢٥).
- ١٣- "لأنهم (مشاركون) لنا فيما يلزم الجميع من (الامتعاض) (للديانة) (الزهاء) (والحمية) (للملة) (الغراء) (نص/٢٦).
- ١٤- تحت ذلك (الختل) (الختل) (والكيد) (والمكر) (نص/٢٦).
- ١٥- إذا اعترض بهذا (الاعتراض) كان إلا (سكران) (سكر) الخمر" (نص/٢٧).
- ١٦- لكن ليزدروا بالناس (زهواً) (وعجباً) وليماروا (لجاجة) (وشغباً) وليفخروا أنهم من أهله (تطاولاً) (ونفجاً) وهذه طريق (مجانبة) (الفلاح) (نص/٣٠).

١٧- فإن الحظ لمن أثر (العلم) وعرف (فضله)، (أن يسهله) (جهدته) ويقربه بقدر طاقته ... بل (لو أمكنه) (أن يهتف) به على قوارع طرق المارة ويدعو إليه... وينادى في مجامع السيارة، بل لو تيسر أن يهب المال لطلابه... لكان ذلك (حظاً) (جزيلاً) (وعملاً) (جيداً) و(سعيًا) (مشكوراً) (كريمًا) (وإحياء) (للعلم). (نص/٣١).

٤-١ الألفاظ الغربية (قليلة الاستعمال)

وندخل إلى سمة من سماته في اختيار اللفظة المفردة، وهو ما نجده في كتاباته من مفردات قليلة الاستعمال، وذلك لتحقيق إيقاع صوتي بارز أحياناً يتناسب مع ما قد يتطلبه السياق من قوة التعبير، أو لفت نظر إلى مبالغة معينة يقتضيهما سياق الكلام.

رقم النص:	الكلمة أو المفردة
١-	(خور): ضعف
١-	(وهاء): تخرق.
١-	(تلدد): تحير
١-	(شحط): بعد.
١-	(غول): المشقة أو الهلاك.
٣-	(الانغلاق): الإكراه.
٤-	(المرر): قوة الخلق وشدته.
٤-	(المبرم): المحكم.
٤-	(هجيراهم): هذيانهم.
٦-	(استجادته): طلبه جيداً أو أن يكون جيداً.
٦-	(استفراهه): اختاره حاذقاً.
٦-	(يقرطس) يصيب.
٧-	(دآلة): ما تدل به على حميمك.

- ٨- (التصاوغ): المحافظة).
- ٨- يفوقهم في (الرعة): أي النزوع من الجهل وحسن الرجوع عنه.
- ٨- رمى (رسنه) الحبل.
- ٨- صمد (صمد) الشهوة: والصمد تعنى القصد.
- ٩- صعب (الشكيمة): الطبع الأنف أبي الانقياد.
- ٩- يتورط (غمره): الغمر هو الماء والمقصود أن الحب كان بالنسبة للمحب كالبحر المتلاطم الأمواج.
- ٩- المضاء (كلالة): عياء.
- ١٠- سرى (الأعراق): شريف النسب.
- ١٠- يألف (الإمحاض): النصيحة.
- ١٠- مشدود (الأواخي): التحري والقصد.
- ١٢- (إصناف) النبات: بدأ ظهور إيراقه.
- ١٢- الزمان (السجسج): هو الزمان الذي لا حر ولا قر.
- ١٤- أشد (تبجحا): فرحاً.
- ١٥- (الفوت) هو السبق إلى الشئ دون ائتمار من يؤتمرو أوموت الفجاءة.
- ١٥- (انجذم) حبل العلاج: انجذم تعنى انقطع.
- ١٦- في الهدوء (والاستيحاش): الهم والخلة.
- ١٦- (قرع صفاة كبدى): دق صفا الكبد فكدرها والمقصود أن تذكر تلك الديار تكدر صفو العيش وتقلبه إلى هم متواصل.
- ١٧- (ولا معرس) للأمل لديها: والمعرس هو حائط بين حائطي البيت الشتوي لا يبلغ أقصاه أو المستقر أو الاستراحة والمقصود هنا أن لا مستقر للأمل عندها لأي أحد.

- ٢٠- فابى (ولج): تمادى عليه وأبى.
- ٢٢- مالا يتولد مثله من (الذحول): الثأر.
- ٢٥- (لأمة الهيل): أي ثكلته أمه.
- ٢٥- (حمي الوطيس): المقصود بها اشتباك الحرب وقيامها على ساق.
- ٢٥- (غمز ولمز): غمز طعن عليه، واللمز العياب.
- ٢٥- (اشتط عليه): جار عليه.
- ٢٦- (الختل والخنتر): الختل الخدعة، الخنتر الغدر أو أقبح الغدر.
- ٢٧- (الهجنة): اللؤم.
- ٢٨- (وليجة): من تتخذ معتمداً عليه.
- ٣٠- (تطاولاً و(نفجا): النفج التكبر.
- ٣١- شوارع (السابلة): أي الطرق المسلوكة.
- ٣١- مجامع (السيارة): القوافل.
- ٣١- يعظم (الاجعال): الأجور.
- ٣١- أذهب (أخلطه): الأخلط الأمزجة.
- ٣١- (لا يندعر) قارئ كتابنا هذا من هذا الفصل: أي يخاف.
- ٣١- (فيكع): راجعا: يكع تعنى الجبن.
- ٣١- (فجاج): الكفر والفج هو الطريق أو الممر بين جبلين.
- ٣٥- (فقد أجموا خصومهم لجام): أي ألبسوا خصومهم اللجام وهو ما يوضع على وجه الدابة من حبل أو عصا.
- ٣٥- (كعموا) مخاليفهم بكعام والكعام ما يشد به أفواه الحيوان لئلا يأكل أو يعض.

٥-١ دلالة الألفاظ على أدبية النص:

إن إحصاء المصادر والمشتقات في نصوص ابن حزم أي نصوص الدراسة، لا تقف عند كونها سمة أسلوبية واضحة في كتاباته، إنما يمكن الاعتماد على المنهج الأسلوبي لقياس مدى أدبية كتاباته وذلك عن طريق معادلة بوزيمان نسبة إلى العالم الألماني (Busemann)^(١).

وخلاصة الفرض أو المعادلة التي وضعها أن من الممكن تمييز النص الأدبي بواسطة تحديد النسبة بين مظهر من مظاهر التعبير، أولهما: التعبير بالحدث وثانيهما: مظهر التعبير بالوصف ويعني بوزيمان بأولهما الكلمات التي تعبر عن حدث أو فعل وبالثاني الكلمات التي تعبر عن صفة ضمير لشيء ما أي تصف هذا الشيء وصفاً كمياً أو كيفياً^(٢).

ويتم ذلك بإحصاء عدد الكلمات التي تنتمي إلى النوع الأول وعدد كلمات الثاني ثم إيجاد خارج قسمة المجموعة الأولى على المجموعة الثانية ويعطينا خارج القسمة قيمة عددية تزيد وتنقص تبعاً للزيادة والنقص في عدد الكلمات في المجموعة الأولى على المجموعة الثانية، وتستخدم هذه القيمة باعتبارها دالاً على أدبية الأسلوب فكلما زادت كان طابع اللغة أقرب إلى الأسلوب الأدبي، وكلما نقصت كان أقرب إلى الأسلوب العلمي^(٣).

ولقد اعتمد الباحث هذه المعادلة في إثبات أدبية كتابات ابن حزم، وعلى الرغم من أن النصوص ناطقة بملكته الأدبية دون الاعتماد على القوائم والمعادلات، إلا أن اعتماد الباحثين لهذه المعادلة أضاء الطريق أمام الباحث في اعتمادها في دراسة أسلوب ابن حزم ومعرفة مدى اقتراب أسلوبه من مجال الأدب منه إلى مجال العلم

(١) الأسلوب دراسة لغوية إحصائية - (٧٣).

(٢) المصدر السابق، (٧٤).

(٣) المصدر السابق، (٧٤).

ولقد برهنت الدراسات اللاحقة التي قام بها فريق من علماء النفس الألمان على صحة الفرض الذي وضعه (بوزيمان) مع بعض التعديل فخرجت المعادلة كالآتي:-

$$\frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}} = \text{نسبة الفعل إلى الصفة}$$

وتسمى بالإنجليزية اختصاراً VAR (هي الحروف الأولى من المقابل الإنجليزي Verb – Adjective Ratio أما نحن فسنختصرها إلى ن ف ص (حيث ن = نسبة، ف = فعل، ص = صفة، أي نسبة الفعل إلى الصفة^(١)).

^(١) الأسلوب دراسة لغوية. (٧٦-٧٨).

في الحوار			في السرد			رقم النص
ن.ف.ص	تكرار الصفك	تكرار الأفعال	ن.ف.ص	تكرار الصفك	تكرار الأفعال	
			٦,٦٦	٣	٢٠	١
			٩,٥	٢	١٩	٤
			٤,٢	٥	٢١	٥
			٣,٧	١٠	٣٧	٨
			٠,١٦	٤٨	٨	١٠
			١,٣٣	٦	٨	١٢
			٢,٨٣	١٢	٣٤	١٦
			١,٠٥	١٨	١٩	١٧
			٠,٢١	٢٣	٥	١٨
١٨,٨٣	٦	١١٣	-	-	-	٢٠
			٦,٠	١	٦	٢٢
			١,٤٤	٩	١٣	٢٤
			٤,٦٦	١٢	٥٦	٢٥
			٢,٧٥	١٢	٣٣	٢٦
			٥,٥	٤	٢٢	٣٠
			٢,٧٥	٢٤	٦٦	٣١
			٤	٥	٢٠	٣٥

إن استقراء الأرقام المبينة في الجدول السابق يبيّن لنا ما يلي:-

١- أن (ن ف ص) في عشرة نصوص من أصل خمسة عشر نصاً تتراوح ما بين (٢-٦) تقريباً، أي أن عدد الأفعال في هذه النصوص يصل إلى أضعاف عدد الصفات وبذلك فإن مستوى أدبية اللغة يغلب على مستوى علميتها عند ابن حزم وذلك على مستوى السرد.

٢- أن (ن ف ص) في الحوار الذي وجد في نص (٢٠) بلغ (١٨,٨٣) وهي نسبة أعلى مما ظهر في السرد، وبذلك فإن الحوار في النصوص الحزمية موضع الدراسة قد تجاوز مع فرضية ارتفاع (ن ف ص) في الحوار.

٣- أن (ن ف ص) قد انخفضت في خمسة نصوص وتفسير ذلك هو:

أ- النص (١٠) وهو في ذكر المساعد من الأخوان، وهو نص كثف فيه ابن حزم العبارات، لوصف المتمنى من الأصدقاء وهو بذلك يستعرض صفات إنسان أقرب ما يكون من الكمال أو المثال، لذا انخفضت (ن ف ص) فيه بالقياس إلى النصوص السابقة المشار إليها، فكانت (٠,١٦).

ب- النص رقم (١٧)، وهو في وصف نزهة في أحد البساتين، وهو قصير نسبياً، وقد تساوى فيه عدد الأفعال بعدد الصفات تقريباً، فكانت (ن ف ص) فيه (١,٠٥) ولعل السبب في ذلك أن السرد فيه متعلق بوصف ثابت، وهي مناظر البستان الخلابة من رياض أريضة، وجداول تطرد كأباريق اللجين وثمار مهدلة، ونواوير مؤنقة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة.

ج- النص رقم (١٨) وهو في وصف جارية ألفها في الصبا، وفيه يظهر ابن حزم براعته في رسم الشخصية، من خلال عملية تكثيفية يحشد فيها ما لا يقل عن (١٨) صفة في قطعة لا تزيد على سبعة أسطر، واللافت للنظر في هذا أنه ينحو منحى ظاهرياً في الوصف، إذ أن أغلب أوصافه مرئية واقعية في الموصوف، فغضاضة البصر والحذر، والقطوب كلها صفات ملموسة مدركة لا تحتمل التأويل، فكانت (ن ف ص) في النص (٠,٢١).

أما النصان الباقيان من النصوص الخمسة وهما (نص/١٢) و (نص/٢٤)، فإنهما يقتربان من النصوص السابقة من حيث غلبة صياغتهما العلمية أو اقترابهما منها على الصياغة الأدبية، ولذا أعرضت عن تفسيرها اكتفاءً بما سبق على أن

(ن ف ص) في (نص/١٢) = (١,٣٣).

(ن ف ص) في (نص/٢٤) = (١,٤٤).

أما في بقية النصوص التي غلبت عليها أدبية اللغة، لما تتحدث عنه من أحداث ومواقف انفعالية، فقد ظهر الفرق واضحاً لصالح استعمال الأفعال.

على مستوى التركيب الجملي

يتقن ابن حزم في كتاباته بالتتويج في جملة مستعملاً لكل حال ما يشابهه من الجمل، سواء أكانت اسمية أم فعلية أم قصيرة أم طويلة أم بسيطة أم معقدة حيث ما يقتضيه الموقف.

وفيما يلي أمثلة على ما يتسم به تركيب هذه الجمل:

- الجمل القصيرة - الازدواج

يكاد يغلب على كتاباته استعماله للجمل القصيرة في مواضع رسم الشخصيات والديار والأمر التي يريد تعميق الإحساس بها والنظر إليها، والتي هي على درجة من الأهمية، من هنا يعمد ابن حزم إلى عملية تكثيف الصورة بتتابع المتعاطفات مع قليل من السجع الذي يأتي عفو الخاطر ودون عناء، معتبياً بالأسباه من نماذج التعبير، كما يمثل التكثيف عنده "استغراقاً نفسياً يكفل من خلاله التعبير عن الحال غياباً في جنباتها"^(١).

ويهدف أيضاً من خلال تقنية الجمل القصيرة وازدواجها تجميل التعبير وغناؤه بنغمات أشبه ما تكون بنوثة موسيقية يتراوح معها القارئ دون كلل أو ملل، فعن طريق تقسيم النص وتذبذبه بين الجمل القصيرة والطويلة، فإنه يصنع إيقاعات تذهب بالنص إلى مجال أرحب وأجمل أقرب ما يكون بنغمة الشعر.

ومن أمثلة ذلك:-

أ- على مستوى رسم الشخصيات.

يرى إحسان عباس أن تكثيف العبارات عند ابن حزم أكثر ما تكون عند رسمه للشخصيات^(٢) ويمثل النموذج التالي احتفاءه بهذه الخاصية عند رسمه لشخصية ماء، وفي هذه القطعة يصف صديقاً يتمنى وجوده، في زمن اختلطت أوراقه جراء الفتنة البربرية، وما حدث في قرطبة من الكوارث حتى غيّرت

^(١) رسائل ابن حزم (٨٣/١).

^(٢) رسائل ابن حزم (٨٢/١).

النفوس، وأظهر كل وجهه الحقيقي دون طلاء التزلف وأقنعة الزيف، وفي هذا النص يورد ما يجب أن يتصف به الصديق.

"لطيف القول، بسيط الطول، حسن المآخذ، دقيق المنفذ، متمكن البيان، مرهف اللسان، جليل الحلم، واسع العلم، قليل المخالفة، عظيم المساعفة، شديد الاحتمال، صابراً على الإدلال، جم الموافقة، جميل المخالفة، مستوي المطابقة، محمود الخلاق، مكفوف البوائق، محتوم المساعدة، كارها للمباعدة، نبيل المداخل، مصروف الغوائل، غامض المعاني، عارفاً بالأمانى، طيب الأخلاق، سري الأعراق، مكتوم السر، كثير البر،... يألف الامحاض ولا يعرف الإعراض" (النص / ١٠).

نموذج ثان في وصف جارية قد ألفها في صباه وكيف أنها بلغت من الكمال الخلقي والخلقي درجة عظيمة تعادلت أو تساوت فيها جميع الصفات، فإلى جانب حسن وجهها فهي عاقلة عفيفة طاهرة دمثة.

"فهي عديمة الهزل، منيعة البذل، بديعة البشر، مسلة الستر، فقيدة الذام، قليلة الكلام، مغضوضة البصر، شديدة الحذر، نقية العيوب، دائمة القطوب، كثيرة الوقار، مستلذة النفار" أقول إنها حورية الدنيا. (النص / ١٨).

ب- على مستوى تعميق الإحساس بوضع أو موقف أو منظر

في سياق كلامه عما يحدثه الحب في الإنسان من تغيير، نجد تشكيلة من المزدوجات في فقرات متتالية، تصف حالة الإنسان عندما يقع في شرك الحب وما يطرأ عليه من تبدل في السلوك والعادات.

"فكم بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان تشجع، وغليظ الطبع تظرف، وجاهل تأدب، وتفل تزين، وفقير تجمل، وذى سن تفتى، وناسك تفتك، ومصون تهتك" (النص / ٢).

ثم يذكر في نص آخر حكم الحب وسلطانه وسطوته على من تملكه، وطاعتهم العمياء له، وأن للحب حكماً على "النفوس ماضيا، وسلطانا قاضيا، وأمرأ لا يخالف، وحدأ لا يعصى، وملكا لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا يرد،

وأنه ينقض المرر، ويحل المبرم، ويحل الجامد، ويحل الثابت، ويحل الشغاف، ويحل الممنوع" (النص/٤).

وفي وصفه لما تقوم به العين من الأعاجيب والمواقف المحمودة بين المحبين دون أن يلحظهم الرقباء والوشاة، ترصيع عجيب في الجمل معتمداً الطباق في تكثيفها وتركيزها بحيث يعطي المعنى حقه دون إطالة أو تمطيط للألفاظ. "ويقطع به ويتوصل، ويوعد ويهدد، ويقبض ويبسط، ويؤمر وينهى، وتضرب به الوعود، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب ويمنع ويعطى" (النص/٥).

وفي نقده لابن النغيلة الذي تتكرر للجميل، فعاد يهزأ بالقرآن وأهله، وما نغم منهم إلا أن جعلوه وزيراً عليهم، فرجع هذا المعروف اعتراضاً وطعننا في كتاب الله والادعاء بتناقض آياته، فوصف ابن حزم حالته حين اعتراضه. "وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر، وسكر عجب الصغير إذا كبر، والخسيس إذا أشر، والذليل الجائع إذا عز وشبع، والسفلي إذا أمر وشط، والكلب إذا دلل ونشط، وكيف بخلق سوء متكرر في الخساسة والهجنة والردالة والنذالة واللعة والمهانة؟" (النص/٢٧).

(أ- ٣) التنوع في المزدوجات بين الجملة الفعلية وشبه الجملة:-

نلاحظ في استعمال ابن حزم للمزدوجات أنه ينوع بين الجملة الفعلية والاسمية وشبه الجملة حسب ما يقتضيه سياق السرد، فإذا اقتضى السرد وصف انفعال أو حركة أو وضعاً درامياً سادت الجملة الفعلية، وإذا كان يصف حالة من الثبات سادت شبه الجملة أو بعض المشتقات والمصادر ومن أمثلة ذلك:-

الجميل الفعلية في المزدوجات:-

- ١- "يبيذ أصحابه في الانقباض، ويفوقهم في الرعة، لا ينظر إلا في حلقة فضل" (نص رقم / ٨) .
- ٢- "ولو طوى مكنون سره، وأخفى بنيات ضميره، لاستندام لباس العافية (نص/٨) .
- ٣- "تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها" (نص/١٦) .
- ٤- "وقد فرقتهن يد الجلاء، ومزقتهن أكف النوى" (نص/١٦) .
- ٥- "وأطلق الأشر لسانه، وأرعى البطر عنانه، واستشمت لكثرة الأموال لديه نفسه المهينة، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده همته الحقيمة" (نص/٢٦) .

شبه الجملة والمشتقات والمصادر

- ١- "ولا وكلنا إلى ضعف عزائمنا، وخور قوانا، ووهاء بنيتنا، وتلدد آرائنا" (نص/١) .
- ٢- "وحمدت الله عز وجل عليه، واستدمته لك، واستزددته فيك" (نص/١) .
- ٣- "هو المصيبة الحالة، وهو قاصمة الظهر وداهية الدهر، وهو الويل، وهو المغطى على ظلمة الليل، وهو قاطع كل رجاء" (نص/ ١٥) .
- ٤- "صار غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب... ونهباً للألسنة، وعرضةً للتطرق إلى عرضه" (نص/٢٥) .
- ٥- "وتحت ذلك الختل والختر والكيد والمكر" (نص/ ٢٦) .
- ٦- "لكن ليزدروا بالناس زهواً وعجباً، وليماروا لجاجاً وشغباً وليفخروا أنهم من أهله تطاولاً ونفجا" (نص/٣٠) .
- ٧- "لكان ذلك حظاً جزيلاً، وعملاً جيداً، وسعيًا مشكوراً كريماً وإحياءً للعلم" (نص/٣١) .

٢- الجملة الطويلة:-

من الطبيعي أن لا تلم الجملة القصيرة بجميع المواقف أو تحليلها، ولذا يلجأ ابن حزم إلى الجمل الطويلة، خاصة في رسم الملامح النفسية وإبراز الصراع الداخلي أو افتتاح مجموعة من الجمل القصيرة أو في تحليله لبعض المواقف.

١- تحليل المواقف وعرض الأمور خلال السرد

قلنا إن الجمل القصيرة لا تفي بتغطية بعض الأمور، أو شرح بعض الجوانب، الأمر الذي يتطلب من الكاتب اعتماد استراتيجية أخرى وذلك بالالتكاء على الجمل الطويلة في عملية احتواء للموقف وإجماله.

ومن أمثلة ذلك:-

"اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وجمع أموال ربما كانت سببا إلى انقراض أعمارهم وعونا لاعدائهم عليهم، وعن حيابة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتى استشرف لذلك أهل القلة والذمة، وانطلقت أسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعااض للديانة الزهراء والحمية للملة الغراء، ثم هم متردون بما يؤول إليه إهمال هذا الحال من فساد سياستهم والقروح في رياستهم" (النص/٢٦).

نلاحظ في هذا النص عرضاً لأمر بالغ الأهمية، وهو تحليل الموقف السياسي لأمراء الطوائف، وما تشاغلوا به عن صيانة الدين وحفظ الملة، بالخلود إلى الدنيا وبعمارة القصور وجباية الأموال، فنتج عن ذلك هزيمة أمام النصارى وتقليد الأمور لليهود وكفى بها من مذلة.

نجده في موقع آخر من النصوص ينوه بطلاب العلم، من أنهم أصحاب الصفقة الرابعة والسعي المنجح، وكيف لا وهم الذين ضمنوا الخلود في الدنيا والأجر في الآخرة فاستعمل ابن حزم الجملة الطويلة لتساعده في ذلك.

"فطالب هذه العلوم لهذه النية هو المستعيز بتعب يسير راحة الأبد، وهو ذو الصفقة الرابعة، والسعي المنجح الذي بذل قليلاً واستحق كثيراً وأعطى تافهاً وأخذ عظيمًا وهو الذي عرف مالا يبقى معه فزهد فيه، وميز مالا يزايله فسعى إليه، ونسأل الله أن يجعلنا في عدادهم بمنه آمين" (النص/٢٩).

ج- رسم أو إبراز ملامح الصراع الداخلي

يكشف ابن حزم باستعماله للجملة الطويلة الملامح النفسية أو معالم الصراع الداخلي لدى بعض من يكتب عنهم، أو خلال التغلغل في أعماق النفس وبعث مكنوناتها، بمهارة الأديب الذي ملك ناصية اللغة فطوّعها لخدمة لوحته وإبراز معالمها، وهذا ما نجده في تصويره لحالته تجاه من أحبهم، وما ذاقه من الأسى والحزن بعد فراق الأحبة وتشتت شملهم.

"وما مللت شيئاً قط بعد معرفتي به، ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقائي له، وما رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذ كنت، ولا أقول الألاف والإخوان وحدهم، ولكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك، وما انتفعت بعيش ولا فارقتي الإطراق والانغلاق مذ ذقت فراق الأحبة، وإنه لشجى يعتادني وولوع هم ما ينفك يطرقني، ولقد نغص تذكر ما مضى كل عيش أستأنفه، وإنني لقتيل الهموم في عداد الأحياء، ودفين الأسى بين أهل الدنيا" (النص/٣).

وفي مثال آخر يعلل نفور المحبوب وهجره بإفشاء السر، وبالتالي يحدث ما لا يستطيع إصلاحه ولو أفنى عمره في ذلك، فعلى صاحب السر أن يكون كما قال الشاعر:

ولا تخبر بسرك بل أمته وصير في حشاك له حجاباً^(١)
إذن فليضعه في أعماق أعماق نفسه ويحطه بالحذر والخوف، وإلا ندم حين لا ينفع
الندم.

وفي ذلك يقول ابن حزم:

"وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به، فإني أدري من كان
محبوبه له سكناً وجليساً، ولو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه "مناط الثريا قد
تعلت نجومها" وهذا ضرب من السياسة، ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور
مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا
يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد" (النص/٧).

د- في افتتاح مجموعة جمل قصيرة بجمل طويلة

من الملاحظ أن الجمل القصيرة المزروجة يسبقها جمل طويلة وتلك
المراوحة هي التي تميز كتابه ابن حزم للنصوص الأدبية وذلك سعياً منه لتكثيف
الصورة من جانب وإبعاد شبح الملل عن قارئها من جانب آخر.
مثال ذلك-

"واعلم أعزك الله أن للحب حكماً على النفوس ماضياً، وسلطاناً قاضياً،
وأمرأ لا يخالف، وحدأ لا يعصى، وملكا لا يتعدى، وطاعة لا تصرف، ونفاذاً لا
يرد" (النص/ ٤).

وقوله في باب المساعد من الأخوان:

"من الأسباب المتمناة في الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً
مخلصاً، لطيف القول، بسيط الطول، حسن المأخذ، دقيق المنفذ، متمكن البيان،...
الخ (النص/١٠).

^(١) المرء، محمد بن يزيد، الفاضل، تحقيق عبد العزيز الميمني، ط ٣، القاهرة، دار الكتب المصرية، ٢٠٠٠، (١٠٢).

ألفاظ كثيرة الدوران في النصوص:-

من الملاحظ أن تكرار التراكيب ليس له ذلك الحضور عند ابن حزم، والذي يظهر للباحث، أن الرجل يراه عيباً، أو قصوراً أدبياً، فأقصر أو ترك، ومع ذلك فإن الباحث لاحظ العديد من التراكيب الكثيرة الدوران في النصوص، فأحب أن يورد بعضاً منها خلال الدراسة إظهاراً لسمة أسلوبية حزمية أخرى تضاف إلى ما سبق ومن أمثلة ذلك:-

١- "وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له" ويقصد بالصيانة المحافظة والطهارة من أمثلة ذلك:-

- "وناسك تفتك ومصون تهتك" (النص/٢).
- "كنت أعده كثير التصاون" (النص/٨).
- "مضمون العون، كامل الصون" (النص/١٠).
- "ولم أشهد له مثلاً حسناً وجمالاً وخلقاً وعفة وتصاوناً" (النص/١٩).
- "وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة أمام الناس"^(١)
- "وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان والتصاون"^(٢).

٢- ومن بعض سمات الحب الكتمان باللسان^(٣)

- "ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهده على وجهه، كاتماً للأسرار" (النص/٦).
- "وربما كان سبب الكتمان ألا ينفر المحبوب أو ينفر به" (النص/٧).
- "سري الأعراق مكتوم السر" (النص/١٠).
- يشاركه في خلوة فكره، ويفاوضه في مكتوماته" (النص/١٠)

^(١) رسائل ابن حزم، (٢٧٦/١).

^(٢) رسائل ابن حزم، (١٤٤/١).

^(٣) رسائل ابن حزم، (١٤٦/١).

ورد تركيب على وزن "أفعل" ومن أمثلة ذلك

- "... ولا تأنق القصور البيض قد أهدقت بها الرياض الخضر بأحسن من وصل
حبيب قد رضيت أخلاقه" (النص/١٢).

- "... وحضرت مقام المتعذرين بين أيدي السلاطين، ومواقف المتهمين بعظيم
الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدي
محبوبه" (النص/١٤).

- "فعهدتها أصفى من الماء، والطف من الهواء، وأثبت من الجبال" (النص/٢٠).
- "فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصراً على أهل الشرك"
(النص/٢٣).

- "كل من عرفهم يعرف أنهم أوضر الأمم بزة، وأبردهم طلعة، وأغثهم مفاظع
، وأتمهم خبثاً، وأكثرهم غشاً ... الخ" (النص/٣٠).

على المستوى المضموني:

المقصود تقصي سمات كتابة ابن حزم، وما تميزت به على المستوى المضموني، تسليط الضوء على جانب مهم، وهو التناص في كتابة ابن حزم سواء أكان من ناحية الاستئناس بالتعبير القرآني أو الاتكاء على المخزون الثقافي.

التناص في كتابه ابن حزم.

"التناص في أبسط صورته، يعنى أن يتضمن نص أدبي نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي وتتدغم فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامل"^(١).

"وهو إما مباشر إذ يقتبس الكاتب النص بلغته التي ورد فيها، مثل الآيات أو الأحاديث والأشعار والقصص والأمثال، وإما غير مباشر حيث يستنتج استنتاجاً ويستنبط استنباطاً من النص وهو ما يدعى بتناص الأفكار أو المقروء الثقافي أو الذاكرة التاريخية التي تستحضر تناصاتها بروحها أو بمعناها لا بحرفيتها أو لغتها أو نسبتها إلى أصحابها"^(٢).

وفي حالة كتابات ابن حزم، فإن التناص لا يدخل في طرحه للموضوعات التي طرحها العلماء والمفكرون السابقون، وهو بالتالي يذكره إما رداً عليهم أو تفصيلاً لآرائهم، ولذلك فإن الدارس سيذهب قدر المستطاع إلى استقصاء ما يلحظ في كتابات ابن حزم من الاستئناس بالتعبير القرآني والاتكاء على المخزون الثقافي في محاولة لبيان مدى انعكاس ثقافته الدينية والعامة في كتاباته من خلال بحث هاتين السمتين من سمات أسلوبه.

(١) الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقاً، مكتبة الكنان، إربد، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٦.

الاستئناس بالتعبير القرآني:

والمقصود من ذلك استعمال العبارة في سياق النص بما يشبه تركيبها، أو يؤدي معناها، أو بمقطع منها، وهذا كثير لدى ابن حزم، خاصة في معرض السرد على خصومه أو مقدمات الرسائل.

ومن أمثلة ذلك:

- "ولا حملنا مالا طاقة لنا به" (نص رقم / ١)

وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ (البقرة/٢٨٦).

- وقوله: "على بعد الشقة وتنائي الديار" (النص رقم / ١).

وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ (التوبة/٤٢).

- وقوله: "ويضحك ويحزن" (النص رقم / ٥).

مأخوذ من قوله تعالى ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ (النجم/٤٣).

- وقوله: "فبهت وسقط" (النص رقم / ١٣).

مأخوذ من قوله تعالى ﴿فبهت الذي كفر﴾ (البقرة/٢٥٨).

- وقوله: "ذلت للأيدي" (النص رقم / ١٧).

مأخوذ من قوله تعالى ﴿ودانية عليهم ظللها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ (الإنسان/١٤).

- وقوله: "غمز ولمز، وتعرض همز" (النص رقم / ٢٥).

مأخوذ من قوله تعالى ﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب﴾ (الحجرات/١٠).

- "ولا اتخذ دونهما وليجة أي (الله ورسوله)" (النص رقم/ ٢٨).
مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ (التوبة/ ١٦).

- وقوله: "فهل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين" (النص رقم/ ٢٨).
مأخوذ من قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ﴾ (التوبة/ ٥٢).
- وقوله: "وليس في العجب أكثر من أن يجعلهم أنفسهم أولاد الله تعالى" (النص رقم/ ٣٣).

مأخوذ من قوله تعالى مبينا حقيقة هذا الادعاء.
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدة/ ١٨).

- وقوله: "أتراه كان

يرى في يده عصا يقلبها حيه" (النص رقم/ ٣٦).
مأخوذ من قوله تعالى ﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حِجَّةٌ تَسْعَى﴾ (طه/ ١٩-٢٠).

- وقوله أتراه يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى" (النص رقم/ ٣٦).
مأخوذ من قوله تعالى في معجزات عيسى عليه السلام ﴿وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيَى الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران/ ٤٩).

- وقوله: "ولو استطاعت هذه الطائفة المستأخرة من الحنفية والمالكية أن يدعو

لصاحبهم أنه تكلم في المهد ما تأخروا عن ذلك" (١)

مأخوذ من قوله تعالى ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ (آل عمران/٤٦).

وهذه معجزة من المعجزات التي أيد الله بها نبيه عيسى، إلا أن ابن حزم أراد أن يصور مدى الغلو الذي سيطر على المتأخرين من أرباب المذهبين السابقين، مما جعلهم يفرطون في مدح أئمتهم، وجعلهم في منزلة العصمة التي لا يتطرق إليهم الخطأ أو النسيان، فجاءت عبارة ابن حزم سخرية لاذعة على متعصبة المذهبين.

ومجمل القول إن هذه الأمثلة هي غيض من فيض في كتابات ابن حزم، إذ أن الرجل فقيه ظاهري يعتمد النص في أحكامه، وبالتالي فرجوعه إلى التعبير القرآني سيكون أمراً طبيعياً، على أن أكثر استدلاله بالقرآن جاء أغلبه مباشراً، وهذا مما جعل الباحث يعرض عن معظمه لكثرة في مصنفات ابن حزم.

١-٢. الاتكاء على المخزون الثقافي:

والمقصود بذلك ما يرد في كتابات ابن حزم من استعمال للأمثال والشعر والحكم وبعض ما جاء في أخبار العرب من أقوال وإرشادات مما تلقاه خلال تلقيه العلم على شيوخه الذين ذكرناهم في بداية الدراسة، ومن خلال إطلاعه وقراءاته في الأدب والتراث العربي.

والجدير بالذكر أن هذه الناحية من دراسة النصوص الحزمية من الصعوبة بمكان في استيعاب تلك النصوص وتحليلها، وذلك أن ابن حزم يدخل المخزون في معظم كتاباته سواء أكانت في الأدب أم الشريعة أم في الرد على الملل والنحل

(١) ابن حزم، علي بن أحمد، الرسالة الباهرة تحقيق محمد المعصومي، مجلة مجمع اللغة العربية - دمشق - الجزء الأول، ج ٦٤، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م، (٢٣).

الأخرى، وهذا بالطبع لا يحيط به أو يستخلصه من كتاباته إلا ذو إطلاع واسع على التراث العربي.

وقد استطاع الباحث هنا أن يستخلص مجموعة من الأمثلة على ذلك ومنها:
- قوله: "لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلت نجومها"
(النص رقم/٧).

وهذا مأخوذ من قولهم في وصف بعض البلغاء لرجل: "كان والله أعلى من مناط الثريا"^(١).

وقوله: "في وصف دارهم ببلاط مغيث" وغيرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد عمران" (النص رقم/ ١٦).

مأخوذ من قول الشاعر
يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك^(٢)

- وقوله: "فصارت ملاعب للجنان، ومكامن للوحش" (النص رقم/١٦).
مأخوذ من قول المتنبي:

ملاعب جنة لو صار فيها سليمان لسار بترجمان^(٣)

- وقوله "فصاروا في البلاد أيادي سبأ" (النص رقم/ ١٦).
مأخوذ من قولهم تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ .. قال:
من صادر أو وارد أيدي سبأ.

^(١) الأصفهاني، حمزة، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق عبد المجيد قطامش - القاهرة، ١٩٦٦، (٤٥١/٢).

^(٢) الموصلي، إسحاق بن إبراهيم، ديوان، تحقيق ماجد أحمد العزي، مطبعة الإيمان بغداد، ط ١، ١٩٧٠، ص ١٦٠.

^(٣) اليازجي، موجز ديوان المتنبي، دار طلاس للدراسات والنشر، ص ٤٥٠.

وقال كثير:

أيادي سبأ، يا عز ما كنت بعدكم

فلم يحل للعينين بعدك، منزل

وضربت العرب بهم المثل في الفرقة لأنه لما أذهب الله عنهم جنتهم وغرق
مكانهم تبددوا في البلاد. (اللسان/ سبأ).

- وقوله في وصف مودة امرأة "أصفى من الماء" (النص/ ٢١)

مأخوذ من قولهم: أصفى من ماء المفاصل فهو جمع المفاصل بين جبلين^(١)

- وقوله: "أقوى من الحديد" (النص/ ٢١).

مأخوذ من قولهم: "أشد من حديد، وأصلب من حديد".^(٢)

- "الطف من الهواء" وهذا من صياغة ابن حزم (النص/ ٢١).

مأخوذ من قولهم: أرق من الهواء"^(٣)

- وقوله: "أصدق من كدر القطا" (النص/ ٢١)

مأخوذ من قولهم أصدق من قطاة لأن لها صوتا واحدا لا تغيره وصوتها
حكاية لاسمها تقول قطا، قطا، ولذلك تسميها العرب الصدوق، وكذلك قولهم أنسب
من قطاة "لأنها إذ صوتت عرفت"^(٤).

- وقوله: "أنفذ من السهم" وهذا من صياغة ابن حزم (النص/ ٢١).

مأخوذ من قولهم: أنفذ من إبرة - وأنفذ من سنان"^(٥)

^(١) الدرة الفاخرة، (٢٦٦/١).

^(٢) الدرة الفاخرة، (٢٣٦، ٢٦٣/١).

^(٣) الدرة الفاخرة، (٢٠٩/١).

^(٤) الدرة الفاخرة، (٢٦٥/١).

^(٥) الدرة الفاخرة (٣٩١/٢).

- وقوله: "أمضى من عقم الرياح" (النص / ٢١).

مأخوذ من قولهم أسرع من الريح^(١)

- وقوله "أقصى من الصخر" (النص / ٢١).

مأخوذ من قولهم، أقصى من حجر، وأقصى من صخرة^(٢)

- وقوله: "أنأى من الجوزاء" (النص / ٢١)

مأخوذ من قولهم: "أنأى من الكواكب، أبعد من النجم، من السماء، من الثريا..^(٣)

- جاء في مدح أمير البوننت قوله: "محط رحال الخائفين وملقى عصي التسيار"

(النص / ٢٤) وهو مأخوذ من قول الشاعر:

فالقت عصا التسيار عنها وخيمت

بأرجاء عذب الماء بيض محافره

(اللسان / عصا)

- وقوله: "أزهد الناس في عالم أهله" (النص / ٢٥).

صدر به ابن حزم كلامه عند الحديث عن أخلاق الأندلسيين تجاه علمائهم

والمثل بصيغة أخرى "أزهد الناس في عالم جيرانه"^(٤).

وللإنصاف فإن صيغة ابن حزم أقرب إلى الواقع من صيغة الدرة الفلخرة،

لأن الأهل أشد حسداً من الجيران، وما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم أكبر شاهد

على ذلك، ولقد ردد ابن حيان في ترجمة ابن حزم نفس الصيغة التي جاءت عن

ابن حزم^(٥).

^(١) الدرة الفاعرة (١/٢١٧، ٢/٤٤١).

^(٢) لدرة الفاعرة (٢/٣٥١).

^(٣) الدرة الفاعرة (٢/٣٩١).

^(٤) الدرة الذخيرة، (١/١٧٢).

^(٥) رسائل ابن حزم (١/١٢٤).

- وقوله: "وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد الطرفين إما شفوفاً بائننا عليه على نظرائه أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها، فهناك حمى الوطيس على البائس" قوله "حمى الوطيس" (النص/٢٥).

مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين الآن حمى الوطيس وهي كلمة لم تسمع إلا منه عبر به عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق. (اللسان/وطيس).

...والحق أن من أصعب الأمور في استخراج استعمالاته لمخزونه الثقافي، ما قد يعرض للدارس من حله لمنظوم الشعر ونثره في ثأيا كتابته، وكأنه جزء منها، فلا يبين إلا لمن كان طويل الباع في شعر العرب، بحيث يستخرج جميعها من أمهات الكتب التراثية. (ومن أمثلة ذلك).

- قوله: "لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ويحال بين العير والنزوان"^(١) يعلق إحسان عباس على ذلك قائلاً: وقد جعل بين العير والنزوان: مثل؛ من قول صخر أخي الخنساء
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه
وقد حيل بين العير والنزوان.

- وقوله: "فنرى المرء يظهر التجلد وفي قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفى، ولكنه يرى بعض الشر أهون من بعض"^(٢)

يقول إحسان عباس وهو مأخوذ من قول أبي خراش الهذلي.
حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا خراش، وبعض الشر أهون من بعض

^(١) رسائل ابن حزم (١/١٢٤).

^(٢) رسائل ابن حزم (١/٢٤٥).

أما ما نجده من اقتباسه للشعر كما هو نصه كاملاً، فهو قليل بالنسبة لما ذكرنا سابقاً من تناصه، ومن أمثلة ذلك في النصوص قوله:
- فلأسباب أسباب وللمداخل إلى البلاء أبواب، وقد قال على بن العباس (النص/٢٦).

لا تحقـرن سـبباً كـم جر أـمراً سـبباً

وقول أبو نصر بن نباتة

فلا تحقـرن عـدواً رماك وإن كان في ساعديه قصر
فإن السيوف تجد الرقاب وتعجز عما تتال الإبر

كان هذا الاقتباس في معرض حديثه عن انشغال أمراء الطوائف بحطام الدنيا وإهمال أمور الأمة ودينها، وإعطاء مقاليد الحكم وتدبير الأمور لمن يبطن العداوة والبغضاء للإسلام وأهله.

- وقوله: "وكيف بخلق سوء متكرر في الخساسة والهجنة والرزالة والنذالة واللغة والمهانة والله در القائل" (النص/٢٧).

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى.

على مستوى التصوير الفني:

التصوير سمة من سمات أسلوب ابن حزم في الوصف الفني وخاصة من خلال تصويره للشخصية المحورية مثلاً،^(١) وبشكل أعم نجده يضع للصورة محوراً يملك تحركات النفس خاصة وأنها تميل إلى التصاوير المتقنة فإن ثبتت واستقرت نظرت إلى ورائها شيئاً يشاكلها^(٢) فالصورة عنده العلة الجالبة للنظر، ولذا اهتم بعملية التصوير وخاصة فيما يتعلق بالشخصية بكل جوانبها، حسب ما يقتضيه الحال، دون بهرجة زائفة، أو تصنع بلاغي، أو ألفاظ رنانة مع استعمال أشكال البلاغة من تشبيه واستعارة وكناية.

ودراسة هذا الجانب عند ابن حزم، لن تفصل في أنواع التشبيه والاستعارات والكنائيات وغيرها من أساليب البيان، لأن ذلك ليس مقصود الدراسة، إنما ستنتم الإشارة إلى نماذج من تفنن ابن حزم في التصوير الفني في كتاباته، والميزة هنا كيف أصبح التصوير الفني سمة أسلوبية في كتابات ابن حزم مع أنها ليست أدبية بمعناها الحرفي.

وفي هذه الدراسة سيتناول الباحث مجموعة من الصور الفنية بالتحليل والتعليق بشكل خاص.

فمن وصفه لشاب من أبناء الكتاب بقرطبة اسمه أحمد بن فتح.

- "وصح عندي أنه كشف رأسه وأبدى وجهه ورمى رسنه وحسر محياه وشمر عن ذراعيه وصمد صمد الشهوة" (نص رقم/٨).

وذلك بعد ذكر أخلاقه وصفاته قبل أن يقع في حب أحد أبناء الفتانين اسمه إبراهيم، فكان تصويره لحالته بعد الوقوع في هذا الحب المشنوم في غاية الدقة وبالذات عندما صور طرحه للحواجز الاجتماعية عند أبناء الكتاب، وإلا فكشف الرأس ليس معيباً في كل حال إلا أنه أدخل في تصويره عادات كان يتخلق بها أبناء الكتاب وطلبة العلم وذلك في تشخيص رائع لثباته أمام الخلق بالمجاهرة بحب ذلك الفتى في حالة هي الغاية في الابتذال والانحطاط.

(١) رسائل ابن حزم، (٨١/١).

(٢) انظر المصدر السابق، (٩٨/١)، (٩٩).

- وأقرب من النفس	
- وأقرب من النسب	
- وأرسخ من النقش في الحجر	

إن للفرق الكمي بين الصورتين دلالة هامة، ففي حالة المودة والمحبة يوجد الكثير مما يقال لأن النفس منصرفة إلى الاستمتاع والخلود إلى الأجواء الجميلة التي تبعث في النفس حقائق التكامل والتشاكل، فالمحبة أمر يغوص في أعماق أعماق الإنسان كما يراه ابن حزم من هنا جاءت الكلمات لينة ناعمة قوية ثابتة تتناسب والمقام.

- أصفى (من الماء). - وألطف (من الهواء).
- أضوأ (من الشمس). - وأتقّب (من النجم).
- أعجب (من الدهر).
- أقوى (من الحديد).

يجئ تعبير (ألذ من العافية) (وأحلى من المنى) على القمة من تصوير هذه المودة ولو لم يكن فيها إلا هاتان الصفتان، لكانت جديرة أن تكون ملكة جمال الكون، إذ لا يوجد ألذ من العافية، وكيف تأتي اللذة بأمر ما أو شيء ما، ما لم ترافقه العافية وتكون إلى جنبه ومصاحبة له.

ثم لك أن تتخيل من المنى ما تشاء وتقطف من بستانها ما تريد، وبعدها تجد مودتها أحلى من كل أمنية تمنيتها في حالة اليقظة والمنام، فقل بربك كيف مودتها؟.

وابن حزم هنا لا يطيل في تصويره للوضع، فالمرأة بلغت الغاية، وهذا ما لمسناه من تلك الأوصاف التي جاءت على هيئة برقيات جميلة تحمل معاني متناهية وتدخل بك في فضاءات لا حصر لها من الصور.

وأما قوله (وأرسخ من النقش في الحجر) لك أن تقول إن من كانت هذه صفته فمودته باقية أزلية، لأنها مودة نقشت على جدار القلب كما ينقش على الحجر لتبقى معلماً للأجيال على مر العصور، والعجيب أن هذه البرقية هي الأخيرة التي ختم بها ابن حزم عباراته أو برقياته، في وصف مودة هذه المرأة، وبعدها يتحول إلى الجانب الآخر من البغض، وتغير هذه المودة إلى كراهية، فبينما هي أرسخ من النقش، إذا بها تكون أفزع من الموت! وهذا تصور رائع يجمع ثنائية ضدية تدل على براعة ابن حزم في امتلاكه لنافذة الألفاظ والقدرة على التلاعب بها.

أما في تصويره لحالة البغض والكراهية في الصورة السلبية فنجده بدوره يختار المفردات والصور التي تتفجر بالكراهية، وتفضح تلك المحبة الزائفة، وتكبر الصورة البشعة لتلك المرأة، التي تحولت إلى شيطان بعد أن كانت حملاً وديعاً، كما نجد ذلك في قصصنا الخرافية، وابن حزم هنا يرسم بريشة فنان فيغوص من خلال مفرداته في أعماق تلك المرأة، فيخرج بتلك الصورة المخيفة من خلال تلك المفردات التي تحولت كل كلمة منها إلى وحش كاسر مريع، من هنا تظهر براعة الأديب الذي يناسب بين حجم التعبير المكتوب مادياً ومعنوياً، مع حجم المعاناة والشعور بالحسرة على تلك المودة المتغلبة، فالمرء في حالة الكراهية والبغض أقل حاجة إلى التعبير منه في حالة المودة وهذا ما نلاحظه عند ابن حزم فعند حالة الكراهية جنح إلى تقصير النص في جملة، والصد في تصوير حالة المودة لذا نجده يطيل العبارة بل يكثر من تلك البرقيات التي أقصر منها في حالة البغض.

أما على مستوى اختياره للألفاظ فإنه يجنح إلى الألفاظ الفخمة والأوزان المزيدة في إحداث ما يريده من التأثير.

أفزع / أنفذ / أمر / أمضى / أضمر / أدهى / أشد / أقسى / أبغض / أنأى / أصعب / أكبر / أشنع / أقطع / أبشع.

وعلى مستوى الإيغال في التصوير يسترسل في تفصيل جزئيات أنواع الكراهية وأشكالها فيمتد النص في تشكيلات متنوعة من الجملة القصيرة والطويلة أحياناً.

على مستوى الصورة المفردة:-

أفزع من الموت :- لا يوجد ما هو أفزع من الموت على كل حال فهو

قاصمة الظهر، والبون الأبدى الذي لا رجعة فيه، وإن بغضاً بهذه الصورة بلغ درجة لا تفوقها درجة!.

أمر من السقم:- وإذا كان الموت هو النهاية فلا خير في عيش هو

أقرب إلى الموت منه إلى الحياة بل إن الموت قد يكون أعظم راحة من كدر الأسقام ومعاناة الأمراض.

وأضر من الحمق:- قد قيل عدو عاقل خير من صديق أحمق، إذ إنه يجهل

تصريف الأمور في صغيرها وكبيرها، وإذا أراد النفع أتى بالطوام وجلب لك البلاء.

أشد من الأسر:- أن يجعل الكراهية كالأسر وأشد منه إنها لكراهية بلغت

مرحلة مظلمة إذ إن الحرية مطلب كل كائن حي فكيف بالإنسان؟

وأناى من الحوزاء:- المسافات أمر يذهب بعقل المسافر فتفتت عزيمته

وتخور قواه من قبل أن يخطو خطوة واحدة، فما بالك بالسنين الضوئية للعالم الخارجي، ولعل ابن حزم عند ذكره للجوزاء أراد أن يدخل بغضها في باب المعجزات.

وأكبر من رؤية المصاب:- في العادة أن رؤية المصاب تبعث في النفس

الخوف والرحمة والاشمئزاز وكل حسب موقفه، فهذا محمد الدرة أبكى الملايين من الناس حين أصيب برصاص الإسرائيليين.

عند هذه النقطة يمكن للمتأمل فيما تبقى من هذا التصوير المؤلم، أن يقابل بين صورة هذه المرأة في حالتها المودة والكراهية:

- أصدق من كدر القطا : في الحالة الأولى.

- أصعب من معاناة السماء : في الحالة الثانية.

- أثبت من الجبال : في الحالة الأولى.

- أمضى من عقم الرياح : في الحالة الثانية.

- أجمل من وجه أبي عامر : في الحالة الأولى.

- أبشع من السم الزعاف : في الحالة الثانية.

- أنفذ استحكاماً من الأعراض : في الحالة الأولى.

- أنفذ من السهم : في الحالة الثانية.

هذه المفارقة العجيبة، تكشف لنا مدى تغير الحال بهذه المرأة من غاية المحبة إلى أقصى غايات البغض والكراهية، هكذا يبدع قلم ابن حزم في التصوير، لغة، وبياناً، مانحاً دراسته في الحب حيوية الفن والأدب من خلال رسم شخصيات كتابه بكل ما أتى من أدوات الفنان، كيما يظهر شخصياته وكأنها ماثلة للعيان في أي عصر قرئ هذا النص.

على أن التوسع في دراسة بيانه لم يكن هدفاً لهذه الدراسة في المقام الأول، فقد يكفي استعراض مجموعة من صوره الفنية التي تنتشر في كل موضع من كتاباته وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

فمن ذلك وصفه لدورهم في بلاط مغيث بعد الفتنة البربرية.

١- فأصبحت مأوى للذئاب ومعازف للغيلان، وملاعب للجان ومكامن للوحش،

(نص رقم/١٦).

لك أن تتخيل تلك الديار بعد العز والجاه ورجال كالليوث وخرائد كالدمى
كيف أصبحت تأوي إليها الذئاب، وفي ظلامها محط الغيلان إناث الجن ومرتع
للجان فكأننا أمام لوحة رسام بريشته قصور آل حزم بعد الخراب.

٢- ثم يقول فكانت تلك المحاريب المنمقة حين شملها الخراب وعمها الهدم
كأفواه السباع فاعرة تؤذن بفناء الدنيا. (النص رقم/١٦).
وذلك في تصويره لمقدمة القصور وقد نهبت بكل ما فيها حتى الأبواب
فغدت القصور مفتوحة كأفواه سباع تتجهز لخوض معركة الفناء الأبدي.

٣- "وقد فرقتهن يد الجلاء، ومزقتهن أكف النوى" (النص/١٦).
تصويراً للتشتت الذي نالهم جراء هذه الفتنة البربرية، وما نجم عنها من
قتل وتشريد وهنا تشخيص لكل من (الجلاء/النوى) .

٤- "تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب
المذبجة" (النص رقم/١٧).

يصور أشعة الشمس من خلال أفنان الشجر على الأيدي كرقاع الشطرنج
تارة بيضاء من الأشعة، وتارة سوداء من الظل، أما الثياب فكأنها مذبحة من
انعكاس ضوء الشمس عليها وكأنني به يستحضر قول المتنبي.
وألقى الشرق منها في ثيابي دنائيراً تفر من البنان^(١)

٥- "تارة تتجلى فهي كالعذراء الخفرة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار
ثم تغيب فيها حذر عين الرقيب" (النص رقم/١٧).

الشمس في ضوءها الربيعي كالعذراء الخجلة المتلعة بالغيم تتطلع إلى
عاشقها بين الشوق وحذر الرقيب وهنا يضيف ابن حزم صفة الإنسانية على

(١) موجز ديوان المتنبي، ٤٥٠.

الجمادات، فهذه الشمس الحارقة أصبحت عذراء تطل من شرفتها وعليها خمار خفيف تبدو منه مفانتها ويستترها في الوقت نفسه من عين الرقيب.

٦- "منبعة البذل" (النص رقم/١٨).

وهو تصوير لفتاة كان يحبها، فهي مصنونة لا تجعل من نفسها سلعة رخيصة لضعفاء النفوس؛ بعكس الفتاة التي لا ترد يد لأمس.

٧- "مسبلة الستر" (النص رقم/١٨).

تصويراً لتلك الحجب والأستار الداخلية التي تعف عن كل عيب وعين فهي لا تنظر إلى عيوب الآخرين، ولا تفتح نوافذ الشيطان عليها، لأنه كما قيل "العين بريد الشيطان".

٨- "فوجهها جالب كل القلوب" (النص رقم/١٨).

ولك أن تتصور معي وجه هذه الجارية إلى أي غاية بلغ من الجمال، فهو أشد من الإشعاع الذي يبهر العيون ويلفت الأبصار والسبب أن جمالها خلص من الأبصار إلى أن بلغ حدود القلب فجلبه معه، وهذا تصوير أبدع فيه ابن حزم أيما إبداع وهو في موضع واحد من الجسم وهو الوجه وكما يقولون الوجه الجميل جالب للحظ أفلا يكون جالباً للقلوب.

٩- "لاستدام لباس العافية"

هنا صور ابن حزم كتمان السر وأخفى بنيات الضمير باللباس الذي يضيف الهيبة والشرف وكأنه استحضر قوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير) (سورة التوبة/٢٥).

ولعمري ما من لباس أجمل وأظهر من لباس التقوى وهو جماع كل عافية وستر ولو أن هذا الذي خلع عذاره وهتك ستره تسربل بالتقوى لكان معافى في دينه ودنياه.

١٠- "ارتبك في غيه" (النص رقم/٣٢).

تصويراً للمقلدين الذين يتبعون آراء شيوخهم دون النظر في الحجج والبراهين فمثلهم كما ورد في الحديث عن علي رضي الله عنه قوله "تحير في الظلمات وارتبك في الهلكات (اللسان: اربك) ومن كان على هذه الشاكلة لا يقبل حقاً ولا ينصاع لخير.

ويحشد من هذه الصور الحركية وغيرها في وصفه لنفسه بعد رحيله عن قرطبة وأمثلة أخرى من نفسها لا حصر لها:

- وإنني لقتيل الهموم في عداء الأحياء. (نص رقم: ٣)
- ودفين الأسى بين أهل الدنيا. (نص رقم: ٣).
- فتك بعد لباس النساك. (نص رقم: ٢١).
- ملك إبليس من خطامه. (نص رقم: ٢١).
- أجره رسنه بعد إباء. (نص رقم: ٢١).
- فخب في طاعته وأوضع. (نص رقم: ٢١).

ولعل في هذه النماذج من فن ابن حزم في التصوير ما يكفي لإعطاء فكرة عن مدى تميزه وتفرد أسلوبه، فإن المتتبع لكتاباتة يكون في منأى عن الملل والتعب جراء هذه المراوحة بين الأنماط الأدبية المختلفة.

السخرية في كتابة ابن حزم.

هذه الزاوية من الأهمية بمكان في بلاغة ابن حزم، وبراعته في تصوير خصومه ومعارضيه، وقد رأى الباحث أن يخصص جانباً من دراسته لهذا الموضوع، الذي يظهر بشكل لافت للنظر.

وقبل الشروع في ذلك يتحتم علينا معرفة السخرية، ومم نسخر؟ وما هي أساليب السخرية؟

باختصار: فالسخرية محاولة لطيفة مهذبة الغرض منها تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التي تجانب التطور،^(١) وهو فن من فنون الإقناع يستخدم اللغة في التأثير في عواطف الناس.

أما مم نسخر؟ فإننا نسخر من العيوب الجسدية أو العقلية أو الخلقية ومن العيوب السياسية، والاجتماعية، والدينية، وقد نسخر من العيوب الخلقية والنفسية كالبلخل والجبن والكسل والغرور وحب الظهور والتلون... الخ^(٢).

ثم نختم هذه الأسئلة بأساليب السخرية، وهي التخلص الفكه، والحذقة واللعب بالألفاظ... واللعب بالمعاني^(٣) إلى آخر هذه الأساليب التي تخرج المتهم به في صورة تدعو إلى الضحك والتفكه.

على أن الكاتب المتفنن يظهر براعته في مزج السخرية في أسلوبه حتى يصبح سمة بارزة في طرحه، "وخاصة في المكاتبات الشعرية أو النثرية فإنها تجسد - حينئذ - المفارقة والتباين الخلفي والخلقي، لإظهار البراعة في التفكه والسخرية ولقد افترع الأندلسيون هذا الميدان ببراعة وقوة"^(٤) فكان ابن حزم فارساً من فرسان هذا الميدان، خاصة فيما يتعلق بالخلاف العقدي والمذهبي الواقع بالأندلس على وجه الخصوص، إذ نراه يسخر من المالكية أكثر من المذاهب

^(١) الهوال، حامد عبده، السخرية في أدب المازن، الهيئة المصرية للكاتب، ١٩٨٢، ص ٣٠.

^(٢) المرجع السابق، (٥٠-٥٣).

^(٣) قريحة رياض، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، بيروت - المكتبة العصرية، ط ١، ١٩٩٨، (٣٢-٣٣).

^(٤) خربوش، حسين، أدب الفكاهة الأندلسي، منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٢، ٣٥.

الفقهية الأخرى، وكذلك اليهود والنصارى دون الأديان الأخرى، وذلك بحكم القرب والخلطة فيما نعتقد.

من الملاحظ أن أسلوب ابن حزم الساخر يجئ على وتيرتين متقابلتين، أو أسلوب ثنائي التركيب، فبينما نجده مباشراً في نقده وسخريته وتلبسه لمعارضيه، يقابلنا ذلك التغليف واللعب بالألفاظ وتتميقها، بحيث يبدو من يسخر به في أقبح منظرٍ وأسوأ حال، من هنا يمكن أن نقسم السخرية الحزمية إلى قسمين:-

١- سخرية مباشرة.

٢- سخرية غير مباشرة.

١- السخرية المباشرة:

ونعنى بالسخرية المباشرة، ذلك الهجوم الذي يشنه ابن حزم على معارضيه متفنناً في تلبهم والتقليل من شأنهم، فكأنهم محط الدمامة والجهالة والغباء، ولذا يقول ابن حيان "قلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض، ولا يرفه بتدريج، بل يصك به معارضيه صك الجنل، وينشقه متلقيه إنشاق الخردل"^(١) وكما قيل: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين،^(٢) على أن لسان ابن حزم لا يخرج عن المقاصد الاجتماعية أو ميدان النقد الإصلاحي، أو الذب عن حياض الملة، في كثير من أحواله، ويظهر ذلك جلياً في سخريته بابن النغيلة اليهودي، الذي ألف رسالة، زعم فيها أن في القرآن متعارضاً، فتولى ابن حزم الرد عليه مصدراً كل قطعة باتاً خلالها تلباً لا نجده في رسالة من رسائله وأنا هنا سأعدد جميع الصفات والشتائم في جدول يحوى أرقام الصفحات والموجود فيها من الصفات التي رماه بها ابن حزم^(٣).

^(١) الذخيرة (١/١٦٨).

^(٢) تذكرة الحفاظ، ٣/١١٤٥.

^(٣) انظر رسائل ابن حزم (٣/٤٢ - ٦٣).

رقم الصفحة	عدد الصفات مع ذكر بعضها لفظاً	رقم الصفحة	عدد الصفات مع ذكر بعضها لفظاً
٤٢	(٦) صفات منها اللعين، الخسيس	٤٩	(٢) صفتان وهما الخسيس الجاهل
٤٣	(١٠) صفات منها الزنديق، الوقاح	٥٠	(٥) صفات منها المجنون، الشقي
٤٤	(٣) صفات منها المجنون، الأنوك	٥١	(٣) صفات منها الوقاح، المجنون
٤٥	(٧) صفات منها المائق الجاهل	٥٣	(٦) صفات منها الخسيس، المائق
٤٦	(١) صفة الجاهل.	٥٤	(٢) صفتان وهما الأنوك - الجاهل
٤٧	(٣) صفات منها الخسيس الجاهل	٥٥	(٥) صفات منها الجاهل الأنوك
٤٨	(٢) صفتان وهما الخسيس المائق	٥٦	(٤) صفات منها المائق، الزنديق
		٦٣	(٢) صفتان وهما اللعين، الجاهل

ولك أن تتخيل صورة هذا الرجل وعلمه، بعد أن وسمه ابن حزم بـ (٦٠) صفة ذميمة، في رسالة لا تزيد على الأربعين صفحة، ولك أيضاً أن تتصور وقع هذه الرسالة في قلوب المسلمين في غرناطة، الذين يهتمهم أمر تلك الطائفة الرذلة التي تملكّت البلاد والعباد، ولا نبالغ إذا قلنا إن رسالة ابن حزم والتي قبلها كانتا بداية النهاية لذلك المأفون اليهودي، بعد أن ظهرت خيانتة مع ابن صمصادح ضد أولياء نعمته، ومن ملكه رقاب المسلمين وهم بنو زيري^(١).

وعلى اعتبار أن اليهود من الطوائف التي نالت النصيب الأوفر من سخرية ابن حزم، فإن الباحث سيعرض إلى مجموعة من العبارات الساخرة الموجهة التي أطلقها عليهم في كتابه "الفصل".

- منها قوله " أراد أن يخرج هذا الساقط من مزبلة فوق في كنيف عذرة"^(٢) وذلك في معرض الرد على اليهود الذين قالوا بأن مدة بقائهم في مصر كانت (٤٠٠) عام فنقض ابن حزم هذه الفرية بطريقة علمية، فما كان من أحدهم أي اليهود إلا أن قال: أن المدة تحسب من حين خاطب الله إبراهيم بهذا الكلام.

(١) انظر الذميمة، (١/٢: ٧٦٨-٧٦٩).

(٢) الفصل، (١/١٥٢).

- وقوله "من عمل كافر مستخف ما جن سخر بهم... أو من عمل تيس أرعن"^(١)
ويقصد به من كتب التوراة فإنه لا يحسن الحساب ولا يحسن التاريخ.
- وقوله "وما افتراه الكفرة أسلافهم الأتتان"^(٢).

وذلك في مسألة الصراع التي حدثت بين الله تعالى وبين يعقوب، تعالى الله عن ذلك.

- وقوله "ولو لم يكن في توراتهم إلا هذه الكذبة وحدها لكفت، أنها موضوعة مبدلة من حمار في جهله أو مستخف سخر بهم ولا بد"^(٣).

وذلك أنهم قالوا أن مدة بنى إسرائيل مذ دخلوا أو دخل يعقوب وبنوه مصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام (٤٣٠) عاماً، والصحيح الذي خرجته النصوص التوراتية هي (٢١٧) عاماً فأين الـ (٢١٣) عاماً الأخرى؟
- وقوله "لقد كان الثور أهدى منه والحمار أنبه منه بلا شك"^(٤).

أي الذي كتب التوراة لليهود.

- وقوله "فعليهم ما يخرج من أسافلهم"^(٥).

وذلك أن الأحبار أجمعوا على أن من شتم الله تعالى وشتم الأنبياء يؤدب، ومن شتم الأحبار يموت أو يقتل.

* أما النصارى فقد تخلل مناقشته للأناجيل، تلك النبوة الحادة التي لا تخلو منها معظم المناقشات للخصوم والمعارضين، منها قوله:

- "فيا عقول الأطفال ويا أدمغة الأوز"^(٦)

وذلك أن النصارى ذكروا في الأناجيل قولاً لعيسى عليه السلام، لا يعدم النبي حرمة إلا في وطنه وأهل بيته" وهذا إقرار بنبوته عليه السلام، لا بربوبيته!.

^(١) الفصل، (١٥٣/١).

^(٢) الفصل، (١٣٤/١).

^(٣) الفصل، (١٧٤/١).

^(٤) الفصل، (٢٠٥/١).

^(٥) الفصل، (٢٤٦/١).

^(٦) الفصل، (٢٨٥/١).

- وقوله "ما ترى" باطرة" المنتن وأصحابه الأرذال حصلوا من مفاتيح السموات ومن خطة الألوهية إلا على خلق اللحى، وإنها أحق لحى بالنتف، وعلى ضرب الظهور بالسياط والصلب، أما باطرة دبره إلى فوق، ورأسه إلى أسفل" (١)

وذلك أنهم يزعمون ان المسيح قال لباطرة في إنجيل متى في الباب (١٦): "إليك أبرأ بمفاتيح السموات، فكل ما حرمته في الأرض يكون محرماً في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون حلالاً في السموات" (٢) فكان باطرة هذا حاكماً على الله تعالى وقد صار الله عز وجل تابعاً له.

ولم تكن الفرق الإسلامية بمنجاة عن سخرية ابن حزم اللاذعة المباشرة فقد كان للشيعة، والأشاعرة، والصوفية من سخريته نصيب لا يستهان به وسيكتفى الباحث بإيراد بعض الأمثلة منها:-

- قوله "فليت شعري في أي سحابة هو من السحاب؟ والسحاب كثير في أقطار الهواء مسخر بين السماء والأرض كما قال الله تعالى" (٣).

وذلك أن السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اليهودي قالوا: إن علي بن أبي طالب في السحاب، أي أنه لم يمت.

ثم يقول ابن حزم: "واعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمي إلى الإسلام فإنما عنصرهم الشيعة والصوفية، فإن من الصوفية من يقول: إن من عرف الله تعالى سقطت عنه الأعمال الشرعية، وزاد بعضهم: واتصل بالله تعالى" (٤).

(١) الفصل، (١/٢٨٨).

(٢) الفصل (١/٢٨٥ - ٢٨٦)، انظر "مع الأصحاب السادس عشر ص (٥٠) ولكن بدل كلمة التحريم كلمة ربط وبدل كلمة التحليل - كلمة تملة. إصدار دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٩٤، ط ٤، ١٩٩٢ م. وعلى هذا فإن المعاني قد يتغير دلالتها، إلا إذا كان القوم في تجديد مستمر فهذا أمر آخر!

(٣) الفصل، (٣/١١٣)، الاسفراينى عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ١٤١٩هـ -

١٩٩٨ م، (٢٣٤).

(٤) الفصل، (٣/١٢٣)، (٢٣٤).

ومن سخريته بالاشاعة قوله: "قليت شعري متى ذاقوه أو شموه و من أخبرهم بهذا"^(١).

وذلك أن الأشاعة قالوا أن للفلك طعما ورائحة!.

ولم يكن المعتزلة ببعيدة من هذا الحط فقد ذكر أحد منظريهم ويدعى أحمد بن خابط "أن في كل أنواع الطير والسمك وسائر الحيوانات، حتى البق والبراغيث والقمل والقرود والكلاب والفئران والتيوس والحمير والدود... انبياء الله تعالى"^(٢) يقول ابن حزم: وكان لعنه الله يقول بالتاسخ والكرور"^(٣) بعد ان لعنه في المقولة الأولى

أما سخريته بالمذاهب الفقهية، فقد اكتفينا بالمذهب المالكي، واعتمد الدارس في ذلك على بعض النصوص المجموعة في مقدمة الدراسة، واقتصرها على جانب السخرية غير المباشرة.

٢- السخرية غير المباشرة:-

هي التي استخدم فيها ابن حزم براعته وتفننه بالألفاظ، وتسخير المعاني حسب ما يقتضيه الموقف، سواء أكان على مستوى النص أم على مستوى العبارة.

أ- على المستوى النص:

من النصوص التي تبرز السخرية فيها صارخة ناطقة، ما علق به ابن حزم على مقولة ابن قاسم^(٤) أحد كبار علماء المالكية التي قال فيها:
"لو رأيت مالكا لاستعظمت مخالفته"^(٥)

^(١) الفصل، (١٥٨/٣).

^(٢) الفصل، (١٣٤/٣).

^(٣) الفصل (١٣٤/٣)، والشهر ستان، محمد بن عبد الكريم، الملك والنحل، تحقيق أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية (د.ت)، (٥٦-٥٤/١).

^(٤) ابن قاسم: عبد الرحمن بن قاسم المصري، أبو عبد الله فقيه جمع بين الزهد والعلم، ولد سنة ١٣٢هـ بمصر ومات فيها سنة ١٩١هـ وهو من تلاميذ مالك (سير اعلام النبلاء ١٢٠/٩) بتصرف.

^(٥) الرسالة الباهرة، ص (١٨).

يقول ابن حزم في ذلك: فيا ليت شعري لو رأى هذا المخاطب مالكا ماذا كان يرى فيه مما يستعظم مخالفته؟ أترأه كان يرى في يده عصا يقلبها حية، أو يراه يبصر الأكمة والأبرص أو يحيى الموتى، أو يراه يطعم النفر الكثير من الطعام القليل أو اليسير، أو يراه ينبع الماء من بين أصابعه، أو يراه يشق القمر، أو يراه يأتي بكلام معجز؟" (النص رقم / ٣٦).

وابن حزم يسرد هذه المعجزات وهو، - وفي ظني - يتفجر حنقا على قائل هذه العبارة، التي لا تقبل من جاهل في الطرقات، فكيف بعالم يعد من كبار علماء المذهب المالكي.

والحق أن سخرية الإمام ابن حزم من قائل هذه العبارة في محلها، إذ كيف يستعظم مخالفة مالك؟ وهذا نبي الله عليه الصلاة والسلام خالفه الرماة يوم أحد^(١). وخالفه بعض الصحابة حين أمرهم بذبح البدن، حتى شكا ذلك إلى أم سلمة رضى الله عنها فأشارت عليه بالذبح قبلهم، ففعل ثم ذبحوا من بعده^(٢) هذه المواقف وغيرها مبثوثة في السيرة النبوية، فما وجه الاستعظام لمالك وهو من تابعي التابعين؟.

ولا يخلص المالكية من سخرية ابن حزم، إذ نجده في موضع آخر يسخر من مقولة أخرى لابن قاسم "وحكوا أيضاً عن ابن قاسم صاحبه رحمه الله أنه كلن يختم القرآن في رمضان مثني مرة"^(٣) يعلق ابن حزم قائلاً:

"أترأه لم ينم طول شهر رمضان لا ليلاً ولا نهاراً؟ أما كانت عليه صلاة فرض؟ أما كان عليه إفطار بأكل وشرب؟ أما كان عليه شهود جمعة؟ وإنصات للخطبة؟ أما عليه وضوء من بول وغيره وغسل يوم الجمعة؟ أما كان من بني آدم فيأخذه من دندنة النهار والليل حيران وصداع ودوار وعشواء النفس وبحة الصوت؟ أما كان يسأم ولا يفتر من قراءة القرآن ست مرات في كل بياض يوم وثلاث زيادة شهراً كاملاً متصلاً؟ هذه صفة الملائكة!" (نص / ٣٩).

(١) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة عيسى الحلي ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥، (٤٣/٣).

(٢) السيرة النبوية، (٣٣٥/٣).

(٣) الرسالة الباهرة، (٣٢).

لاشك أن الإمام مالك رحمه الله من الأئمة الذين شهد لهم العلماء بالتقوى والزهد، على أنها شهادة لا تخالف أمر الشريعة ومعهود الطبيعة، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "أن لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ليال" وعلى هذا نهج الصحابة والسلف الصالح، أما من ناحية الطبيعة، فإن للإنسان طبيعة لا تسمح بهذا الغلو.

ب- على مستوى العبارة:

وإذا كان ابن حزم يخصص أحياناً نصوصاً لمثل هذه السخرية، فإن مستوى الجملة العابرة التي يختزل فيها الكلام الكثير المعبر عن سخطه وعدم رضاه، أمر يكاد لا يحصى وخاصة مناقشته للتوراة والأناجيل وبعض أهل القياس.

ومن أمثلة ذلك:

- "ثم مات ذلك الفرخ الطيب ثم تزوجها وهي أم سليمان عليه السلام"^(١)
وذلك أن اليهود يرمون داود عليه السلام، بأنه اغتصب امرأة أحد الجنود، فولدت له ولداً من زنا فمات، فاعجب لنبي يزني وزانية تكون فيما بعد أمماً لنبي!^(٢)
"ثم يجردهم ويكشف أستاذهم للرقص وللغناء أمام العجل إلا أن تكون أحق أستاذك كشفت"^(٣).

وذلك أن اليهود ذكروا في التوراة أن نبي الله هارون هو الذي صنع لهم العجل، وأمرهم بالرقص بين يديه عراة يغنون^(٤)، ثم يعودون إليه فينسبون فيه النبوة وأخيه، فاعجب لهذا الهراء!.

(١) الفصل، (١٧٣/١).

(٢) الكتاب المقدس، جميعات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٦٦م، صموئيل الثاني، الإصحاح ١١، ١٢.

(٣) الفصل (١٨٨/١).

(٤) انظر سفر الخروج (٣٢-٣٣).

وقوله: "تالله عن ستمائة ألف طوباب لكثير جداً، لا سيما في "قوص" وحدها"^(٥).

ساخراً من قول اليهود أنهم كانوا ستمائة ألف يعملون أو يسخرون في عمل الطوب في مدينة صغيرة أسمها (قوص)^(٦).

- وقوله "ما شاء الله كان أنكرنا الأولاد فأتونا بالزوجة والأختان تبارك الله"^(٧)، وذلك أنه يوجد في الزبور في المزمور (٤٤) كما ذكر ابن حزم: أن الله كان واقعاً وعن يمينه زوجته والأولاد والعشيرة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً^(٨).

- وقوله "عن مثل هؤلاء فلينقل الدين!"^(٩)

وذلك أن اليهود يروون في كتبهم أن فينحاس بن العزار بن هارون طعن برمح زانيا وزانيه، فنفذ الرمح منهما، ثم رفعهما في رمحه إلى السماء وكأنهما طائران في سفود ويقول أحدهم: أن عجز المرأة كان مقدار مزرعة مدى خردل! ومما يرويه النقات منهم أي اليهود! أن طول لحية فرعون كان سبعمائة ذراع!! ألا يوثق بهؤلاء في نقل ما أنزل الله من وحي حتى يتوارثه الأجيال، جيلاً بعد جيل؟!.

- وقوله: "إلا إن كان عزله عن خطته الإلهية بعد أن ولاه إياها فلعمري إن من قدر أن يوليها إنه لقادر أن يعزل عنها"^(١٠).

ساخراً من النصارى القائلين أن المسيح قال لباطرة وسائر الاثنى عشر، وكان بينهم الاسخريوطي الذي دل عليه برشوة وقدرها ثلاثون درهما قال لجميعهم

^(٥) الفصل (٢٠٣/١).

^(٦) سفر الخروج الإصحاح (١٢) الفقرة من ٣٧-٣٩.

^(٧) الفصل، (٢٣١/١).

^(٨) انظر المزمور الخامس والأربعون (٩-١٠-١١).

^(٩) الفصل، (٢٤٤/١).

^(١٠) الفصل، (٢٨٧/١).

أي المسيح: ما حرمتموه في الأرض كان حراماً في السموات وما حللتموه في الأرض كان حلالاً في السموات" (١).

هنا يتساءل ابن حزم عن مصير الأسخريوطي الخائن، أترأه لا يزال على خطته الإلهية أم أنه أقيل منها!.

- وقوله: "هذا خروف الله وهذا سليل الله، وإنما الخروف سليل الكباش والنعجة" (٢).

ساخراً من كلام النصاري، الذين يروون عن يحيى عليه السلام أنه قال عن عيسى: هذا خروف الله ومرة سليل الله (٣) فالحيرة إلى من ينسب.

- وقوله: "فليت شعري أي قياس في قصة يوسف عليه السلام؟ أترى أنه أبيع لنا بيع إخواننا كما باعه إخوته؟ أو ترى أن من باعه إخوته يكون ملكاً على مصر ويغلو الطعام في أيامه؟" (٤).

جاء هذا النص في معرض الرد على أهل القياس، الذين فسروا قوله تعالى: (فاعتبروا يا أولي الألباب) (الحشر/٢) بالدعوة إلى القياس، فرد ابن حزم هذا الرأي قائلاً: إن الاعتبار ورد في مواطن كثيرة في القرآن، ومن ضمنها قوله تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) (يوسف/١١١) فهل جاءت عبرة هنا بمعنى القياس إذا كان ذلك كذلك فلا ضير إذن من بيع الأخوة بعضهم بعضاً!.

(١) انظر إنجيل حق (١٨-١٨)

(٢) الفصل (٣١٧/١).

(٣) إنجيل يوحنا (١: ٢٩-٣٤).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام (٢/٤٠٦).

والملاحظ أن السخرية الحزمية التي تطل علينا بين الحين والآخر، ما هي إلا نتاج تلك النبوة الحادة تجاه من يخاصم، وإمعاناً في الخصومة فإنه يصور الخصم بكل الصور البشعة الدميمة، يهدف من ورائها إلى إظهار المشاهد المعكوسة المتمثلة في الخلل في بنية الاجتماع الإنساني، سواء كان ذلك الاعوجاج في الهيئات الحاكمة أو الأصناف الزائغة، في صورتها الواقعية.

والأمر الثاني أن سخرية ابن حزم، لا تظهر إلا في الردود العلمية، وكأنها استراتيجية يتكئ عليها في إظهار الأخطاء بأسلوب يجمع بين الفكاهة والجد وهذا شئ يتميز به ابن حزم عن غيره ممن كتب في المجالات التي تناولها .

والأمر الثالث أن سخرية ابن حزم أظهرت مدى امتلاكه لنافسية اللغة، فغدت أداة طيعة أو بالأحرى أداة سحرية تشكل معارضيته وخصومه كيف يشاء.